مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

قراءة نقدية في ديوان محمود الأبنودي

د. أحمد عبد المجيد محمد خليفة
أستاذ الأدب والبلاغة والنقد المشارك بقسم اللغة العربية
الكلية الجامعية بمكة المكرمة ــ جامعة أم القرى

أبحاث

" قراءة نقدية في ديوان محمود الأبنودي "

د. أحمد عبد المجيد محمد خليفة
أستاذ الأدب والبلاغة والنقد المشارك بقسم اللغة العربية
الكلية الجامعية بمكة المكرمة - جامعة أم القرى

محمود الابنودى أحد أعلام عصرنا الحديث الذين لم ينالوا قليلاً ولا كثيراً من العناية والرعاية رغم أنه شاعر مجيد ، حمل مشعل المديح النبوى فى عصره ، وعطر الحياة الأدبية فى إقليم قنا بنفحات أشعاره ، ومسك مشاعره ، وأريج عشقه للذات المحمدية (ﷺ) فكان شعره النبوي شفاءً للنفوس ، وبلسمًا للقلوب ، لما فيه من صدق العاطفة ، ورهافة الشعور ، وجزالة اللفظ وجودة العبارة ، وسلاسة العرض ، مما جعله سهلاً محبباً لكل متذوق للشعر : [١]

فَمدْحُهُ بلسَمٌ للنَّفسِ مِنْ وَصَبٍ ... وجُنَّةُ القلبِ إنْ عَادٍ عَلَيْهِ عَدا
وَحُبُّ طه كَفيلٌ بالسَّعادةِ فى الدَّ ... ارينِ فانهَلْ ورَوِّ الرّوحَ والجَسَدا

ولا أكون مبالغاً إذا زعمت أن في قراءتي لديوان محمود الأبنودي قراءة نقدية بعد قيامي آنفا بجمع أشعاره ، وطبعها بمكتبة الآداب بالقاهرة ، طبعة أولى سنة ٢٠٠٠م . هو أول محاولة للكشف عن شخصية هذا الأديب ، بل أول جامع لأشعاره ، وأول مقوم لفنه الشعرى . ولا أدعى أنني لاقيتُ مشقة وعنتاً فى ذلك ، فتلك أمور تلازم الباحث . ولايخلو منها بحث ، ولكنى حاولت جهد المستطيع أن أجمع أشعاره المتناثرة هنا وهناك . من صدور تلاميذه وأصدقائه ، ومكتباتهم ، بعد أن أعيانى الجهد ، وفقدت الأمل فى العثور عليها عند أبنائه الذين لم يكن فى حوزتهم كل نتاج والدهم رغم أنهم جميعاً أدباء . وهذا الأمر بدا لى ملفتا وغريبا !!

وقد قسمت هذه الدراسة النقدية إلى قسمين : القسم الأول - تناولت فيه سيرة الشاعر الذاتية ، فتحدثت عن اسمه ، ومولده ، ونشأته ، وأبنائه ، وأصدقائه ، ووفاته . أما الآخر : فكان عن الدراسة الفنية ، وقد شطرته إلى جزأين ، جزء يبحث فى أهم الموضوعات التى عزفتها قيثارته الشعرية ، وتتمثل فى المديح النبوى ، والمولديات . والحوليات ، والرثائيات ، ثم الشعر التعليمى ، وكان المديح النبوى فى ذروة هذه الموضوعات جميعاً ، بل إن قصائده الأخرى فى المولديات ، والرثائيات كانت أيضاً تدور فى فلك الشعر الدينى والمديح النبوى .

---

(١) - انظر الدكتور محمود مهدي نائب رئيس تحرير جريدة الأهرام في تقديمه لقصيدة الأبنودي " منحة الفتاح العليم" والتي قام بطبعها على نفقته الخاصة في ٢٨ فبراير ١٩٧٣م .

أما الجزء الثاني فتحدثنا فيه عن بعض الظواهر الأسلوبية فى شعره والتى تتمثل فى : الأطناب ، ثم ظاهرة التناص ، وأسلوب النداء ، والظاهرة الصوتية ، والصورة . واللغة ، والتراكيب فى شعره .

***

١- الأبنودى(سيرة ذاتية)

هو محمود أحمد عبدالوهاب الأبنودى ، ولد فى صعيد مصر بقرية أبنود بمحافظة قنا فى شهر يوليو سنة ١٨٩٦م ، وإليها نسبه ، فقيل الأبنودى ، وهى قرية عريقة تقع شرقى نهر النيل ، وعلى ضفاف هذا النيل نشأ الأبنودى وترعرع وقضى شطرى حياته الأولى ، وكغيره من أبناء قريته حفظ القرآن الكريم ، وتلقى العلم على يد الشيخ على الكريتى ، وهو عالم جليل من قرية الكريتية مركز قوص ، فأتقن على يده العلوم الشرعية واللغوية ، فدرس الفقه ، وعلم الحديث ، والسيرة النبوية ، وعلم التوحيد وعلم التفسير . وعلم النحو والبلاغة ، ولم يكتف بالقشور من هذه العلوم ، وأنما عكف على دراستها دراسة دراسة علمية دقيقة حتى أتقنها ، فصار أستاذاً وحجة يُرجع إليه فيها . ونظم أرجوزة فى النحو على غرار ألفية إبن مالك سماها " النفحات الوَهْبيَة فى علم العربية " . وهى تدل على تمكنه فى علم النحو وقدرته فى النظم ، وفيها تبسيط للمادة النحوية . ويمكن أن تدرَّس للطلبة فى المدارس والجامعات .

وكان له لقاء وحديث فى آخر أيامه مع الشيخ أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف آنذاك ، وقد أسمعه شيئاً من النفحات الوهبيَّة ، فسأله الشيخ عن مؤهله العلمى ، وتعجب الشيخ من أن يكون هذا العالم الصعيدى لم يحمل مؤهلاً أكاديمياً ، وفى صدره هذا العلم الغزير .

كما درس الشيخ المذهب المالكى حتى ألمَّ به ، فكان خبيراً بدقائقه وأصوله وفروعه ، وقد كان هذا العالم الجليل متواضعاً لايتظاهر بالعلم ولايدعيه ، ولم يوثر عنه أنه ألف كتاباً أودع فيه ما فى صدره من علوم غير منظومته فى النحو السالفة الذكر ، كما كان خطيباً بارعاً يحرك المشاعر ويهز القلوب .

وكنت قد سألت من أثق بهم من رفقائه وخلطائه ورفاقه عن حياته وأخلاقه ، فسررت لما علمت من مروءته ونبله ، حيث كان يبذل ما يملك – على ضآلته – فى معونة المستعين . كما كان رجلاً فيه صلاح وطيبة ، عُرف بلين الجانب ورقة الشعور ، ودماثة الأخلاق ، وورعه وتقواه وكان صفوحاً متسامحاً ، لايؤاخذ مُسيئاً بنقيصة ، قليل الكلام ، لايميل إلى الجدل والثرثرة فى غير طائل ، يبتسم ويضع يده على فيه ، وهى صفات قرَّبته إلى أفئدة الذين رأوا صفاءه وبادلوه حباً بحب ووفاء بوفاء

وكان يجمع إلى علمه الغزير بالعلوم الشرعية والدينية وعلوم العربية ، الاجتهاد فى العبادة ، ويتخذ من كتاب الله إماماً يأتمر بأوامره ويحيد عن نواهيه ، متبعاً السنة النبوية ، عاشقاً لصاحبها (ﷺ) ، يقول عنه المستشار أحمد سعد مساعد (رحمه الله)

وهو أحد أصدقاء الأبنودى المخلصين : " أنه كان يجتمع هو وزملائه فى مسجد بقرية أبنود فى بداية حياته يقرأون شيئاً من القرآن الكريم وبعض الأورد ، فيظلون على هذه الحالة حتى طلوع الفجر فإذا أذن الفجر صلوا السنة ، وقاموا بقراءة بعض الأوردة الخفيفة والسنة الواردة عن النبى (ﷺ) ، ثم يصلون الصبح ، ثم يقومون للدرس والعلم من بعد صلاة الفجر حتى الساعة التاسعة أو العاشرة صباحاً ، ثم يتفرقون للقيام بأعباء المعيشة سعياً وراء الرزق " . فجمع الأبنودى بين التكسب من الوجه الحلال المشروع والعلم والتفقه فى الدين .

وفى سن مبكرة ترك الأبنودى قرية أبنود إلى مدينة قنا ، وعاش فى حى يسمى شارع الحلوى حيث عين مدرساً للغة العربية والدين بالمدرسة الأنجيلية بقنا ، وكان استاذاً لامعاً متمكناً من مادته ، فأكسبه ذلك شهرة واسعة ، وكثر تلاميذه حتى أنه ما قصد ديواناً حكومياً إلا وجد رئيس الديون أو كبار موظفيه أحد تلاميذه ، ثم عين بوزارة العدل مأذوناً شرعياً لبندر قنا قسم ثان وظل بهذا العمل حتى فارق الحياة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٨ .

ويروى أحد تلاميذ الأبنودى أن الشاعر فى آخر أيامه ساءت حالته رغم ثراء أبنائه وغزارة علمه ، وهو الأب العفوف ذو الكبرياء الشامخ ، ولم يحاول أبناؤه أن يحتضنوا الرجل ، ربما لبعد المسافات بينه وبينهم وتفرقهم فى البلدان المتباعدة عن قنا ، وأنشغال كل منهم بحياته الخاصة وطموحاته . ولم يكن يلازمه فى ذلك الوقت إلا الأبن الأصغر كرم الذى كان آنذاك مستوور الحال ومثل ابيه عفة وكبرياء ، فشعر الرجل بقسوة الحياة ومرارة البعد بينه وبين أبنائه ، وهو شعور ينتاب الإنسان حينما يتقدم به السن ، فنظم قصيدة بديعة نذكر منها :

إذا الأخلاقُ قــــد ولّى ذووهــا … فـقـُـلْ يـا مـوتُ مـرَّ بنـا سَريعـا
فـإنَّ المـوتَ خـيْـرٌ مِنْ حـيـاةٍ … جَفـاها الدَّهـرُ أطعـمـهـا الضَّريعـا
فـيـا نسْلَ المكـارمِ كُنْ كـريمـا … كـمـا كـان الأُلـى ذهَبـوا جَميعـا
فـأصلحْ مـا تـهـدَّمَ مـِنْ تُـراثٍ … بـنـوهُ فـكـانَ مُـزدَهـراً بَديعـا
وكُنْ لِجـمـيـعِ أهلِك نجـمَ هَدْى … تُـجنبهـم بـه السـيـرَ الرقيـعـا
وكُنْ بشيـوخِهم بَراً رحيـمـا … وكُنْ لِشـبـابهم حـصنًا مَنيـعـا
وإن رُمْتَ السَّعَـادةَ فـاجتـذبْهـا … بتـقـوى اللهِ وأجعلهـا شفِيعـا

أبناؤه : له من الأبناء ستة ، منهم خمسة ذكور ، جميعهم أدباء وفنانون أبداعاتهم متفاوتة ، واتجاهاتهم الشعرية متباينة ، ومازالوا يحلقون فى سماء الفن والأدب العربى المعاصر وهم :

جلال الأبنودى (رحمه الله) : أكبر أبنائه ، وهو شاعر متميز عمل طول حياته فى التربية والتعليم ، ونهج نهج والده وأثر الشعر العمودى قالباً لقصيدته ، وإلتزم بالبحور الشعرية التقليدية تامة ومجزوءة ، ومشطورة ، وهو الشاعر الوحيد الذى تغنت له قنا فى عيدها القومى كل عام :

قِنا يا عَرينَ الكماةِ الأباةْ رَعَتكِ على الدهرِ عينُ الإلهْ
وعاش الشَّبابُ فتىً وفتاةْ يقدِّس فيكِ معالي الحياةْ

وفى لحظة يأس قام بإحراق جميع أشعاره ، وكانت فى مجلدين كبيرين ، ولم يتبق منها إلا ما احتفظ به الأصدقاء ، وعندما سألته عن سبب ذلك قال : إن فى شعرى كثيراً من الغزل الإباحى ، وقد أنتابتنى حالة نفسية ، ويأس ، فخفت من الله ، فأحرقته جميعاً .

يليه عبد الرحمن الأبنودي : ثانى الأبناء وهو من رواد الشعر العامى ، وله باع طويل فيه ، وشهرة واسعة ، ترك مسقط رأسه وهو شاب ، وسافر إلى قاهرة المعز لدين الله الفاطمى ، حيث الأضواء والشهرة ، والضياع أيضاً . فاشتعل غضب الأب على ابنه ، ودارت فى قلبه سواقى القلق والخوف ، ولكنه كان غضب الأبوة الحانية والخوف عليه من مجتمع لم يرتده ، لايرحم الضعفاء والغرباء ، ومن مجهول ينتظره ، ولكن سرعان ما عادت الابتسامة على شفتيه يشوبها بعض الرضا ، حينما تحقق من نجاح ابنه ، حتى لوكان هذا الأبن يرتاد قناة غير شرعية فى الأدب العربى ، وقد استطاع عبد الرحمن بذكائه وموهبته وفطنته ، وطموحه ، وإبداعه لفنه أن يحتل مساحة واسعة فى قلوب الكثيرين فى مصر وخارجها ، وأن يكتب أسمه بيده على أعلى قمم الشعر الزجلى المعاصر فى الوطن العربى بحروف من نور .

فاطمة الأبنودى : وهى الأبنة الوحيدة ، عاشت طيلة عمرها فى مدينة السويس مع زوجها ، وهى متذوقة للشعر ، وفى حديثها عبير الشعر العامى .

عبد الفتاح الأبنودى : عاش طيلة حياته بالقاهرة يعمل بالتربية والتعليم مدرساً لمادة اللغة الإنجليزية ، وهو يقرض الشعر بها .

الفنان التشكيلي كمال الأبنودى : " يعشق الرسم لكنه هاجر إلى السعودية منذ فترة طويلة فى رحلة كفاح بحثاً عن لقمة العيش ، ومازال بها .

كرم الأبنودى (رحمه الله): وهو آخر بيت فى قصيدة خلافة الأبنودى ، كان شاعرًا وكاتبًا جيدًا ، من أنصار الشعر الحديث ، ذو شعر تألفه النفس ، ويصبو إليه القلب ، هين لين رقيق ، حلو الصوت ، عزب النفس ، خفيف الروح ، يأنس إليه قارؤه أحياناً ، ويطرب إليه سامعه دائماً ، وهو كاتب جيد ، تسيطر على كتاباته اللغة الشعرية السلسة الموحية ، وله مؤلف " فن الحزن " طبع بمكتبة الدراسات الشعبية فى مايو ١٩٩٦م ، وله كُتب أخرى قيد الطبع منها (المكشوف والمستتر فى أغانى الأفراح القناوية) . وفى الأمثال الشعبية القناوية (دراسة متخصصة)، وفى كتاباته تاريخ للحياة الثقافية والإجتماعية للمجتمع المصرى فى أقليم قنا ، ويمكن للباحث المتخصص الرجوع إليها .

وهذه ظاهرة ثقافية رائعة تلك التى تجعل أفراد الأسرة الواحدة يقبلون على الأدب ، ويتخصصون فيه ، ويتالقون فى سمائه ، وهى ظاهرة ضاربة فى أعماق التاريخ العربى ، نجدها عند البرامكة ، والأصوليين ، وبنى المدبر ، وأسرة أحمد بن يوسف ، وغيرهم كثيرون .

أصدقاؤه : كانت صداقاته قليلة على كثرة تلاميذه ، وكان لقلة صداقاته معنى عظيم فى حياته ، فكانت صحبته من رجال العلم والدين ، وكان من هؤلاء الأصدقاء :

الشيخ أحمد شمروخ : وهو عالم جليل ملم بالقراءات الأربع عشرة ، تلقى مبادءها على يد الشيخ الكريتى بأبنود ، وأتم دراستها على يد الشيخ الصباغ شيخ المقارئ المصرية بالقاهرة فى ذلك الوقت .

اللواء عبده عاشور النقيب (رحمه الله): عالم فاضل ،وعابد عامل ، كان هادئ الطباع مثل صديقه توفى سنة ١٩٩٦م .

العارف بالله الشيخ أحمد محمد رضوان : ينتهى نسبه إلى سيدنا الإمام على كرم الله وجهه ، ويقول المستشار أحمد مساعد : إن الأبنودى كان سبباً فى مجيئه من ضاحية الأقصر بقرية البغدادى إلى قنا ، وتقديمه للناس وتعريفهم به ، وكان الشيخ أحمد رضوان يلقب صاحبه دائماً بـ(عالمنا الشيخ محمود الأبنودى) وكان الأبنودى دائم الأختلاف إلى الساحة الرضوانية بالبغدادى ، وحينما انتقل العارف بالله أحمد رضوان إلى جوار ربه رثاه الشاعر بقصيدة بديعة ، تعبر عن صدق عاطفته، وحبه الشديد لهذا العالم ، والصديق الجليل .

المستشار العالم أحمد سعد مساعد (رحمه الله) : كان قاضيًا شرعيًا ، وعالمًا فاضلا، عطرالأجواء القنائية بعلمه الغزير ، وأدبه الرفيع ، وتواضعه الجم ، (رحمه الله).

***

٢- الموضوعات التى عزفتها قيثارته الشعرية

أولا- المديح النبوي

القارئ في ديوان الأبنودي ، يدرك لأول وهلة أن شعره يدور حول المديح النبوى ، وأنه قليلٌ ما ابتعد في أشعاره عن هذا الغرض السامي، وإن كانت هذه القلة أيضا - تحلق فى سماء الشعر الدينى والمديح النبوى ، وهو فى هذا المديح النبوى يقرض الشعر كعاشق لشخصية الحبيب المصطفى (ﷺ) وليس كناظم مهنته الشعر ، أو شاعر يرمى إلى النظم فى هذا اللون الأدبى كغيره من الأغراض الأخرى ، مسايرة لشعراء عصره ، أو ليثبت لهم جدارته ومقدرته الشعرية البارعة التى لايعجزها أى فن من الفنون الشعرية الأخرى ؛ لذا جاءت قصائده خلاصة عصارة هذا الحب النبوى الذى ملك لبَّه ، وجرى فى شرايينه ، وملأه كله حتى النخاع .

وكانت أروع قصائده - في ديوانه الذي بين أيدينا - وأشهرها على الإطلاق تلك التي سماها : " منحة المنان فى مدح سيد الأكوان " ، وقد عارض فيها بردة البوصيرى فى الوزن والقافية [١] ويبلغ عدد أبياتها نحو ٣٧١ بيتاً موزعة على أثنى عشر فصلاً .

والقارئ لهذه المدحة النبوية يشعر ابتداءً بصدق عاطفة الأبنودى ، ورهافة حسه ، وحبه العميق لشخصية الرسول (ﷺ) ، وحسن عرضه للموضوعات التى تناولها . واستقصائه لمعانيها وجودة سبكه ؛ فهى ليست معارضة تقليدية للبردة ، مماعهدناه من

---

١ - مطلع قصيدة البوصيرى :

أمن تذكُّـر جـيران بذي سلمَ ... مَـزَجتَ دَمعـا جرى من مُقلَةٍ بدمِ
أمْ هبَّتِ الريحُ من تِلقاءِ كاظمة ... وأومض البرقُ في الظلماءِ من أضَمِ

قبل ؛ إنما هى نظرة متأمل عاشق لشخصية النبى (ﷺ) ومكانه من التاريخ ، وتتميز بالطول الذى يسمح للشاعر باستقصاء الأحداث ، وبسط الحديث على نحو أكثر تفصيلاً ، وبعدها عن التكلف ، والإغراق فى المحسنات البديعية ، كما فعل الشعراء السابقون ، وأن ماجاء فيها من محسنات بديعية جاء عفو الخاطر لم يفسد عليه شعره . ولا نجد فيها من الهوان والضعف ، وخلخلة الألفاظ الناجمة عن التكلف والتصنع فى استخدام هذا البديع إلا ما هو قليل إذا ما قيس بشعراء البديعيات [1] .

وقد طبعت هذه المدحة النبوية بمطبعة دار العهد الجديد بالقاهرة سنة ١٩٥٦م ، وقد قدم لها أستاذنا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة (رحمه الله) وأثنى على قائلها بأنه " جاء بنظم رائع وشعر بليغ ومدحة محبرة ومعان محكمة وأساليب رصينة .." ثم قال " وقد أمد الله جل جلاله شاعرنا الجليل بنفس قوة وخيال بديع وأفكار بليغة وحقائق بارعة وصور مشرقة فجاءت هذه البردة غاية فى الروعة والإحكام والجمال " [2]

وقد افتتح الأبنودى هذه المدحة النبوية بالنسيب والغزل كما فعل البوصيرى ، ومن سبقه من الشعراء ، وتلك عادة عربية قديمة لاتشوب المدحة النبوية ، ولاتنقص من قيمتها الفنية ، فقد شبب كعب بن زهير بمحبوبته [3] وهو في حضرة الرسول (ﷺ) فما لامه النبي (ﷺ) ، ولا أنكرها عليه أصحابه ، ولا آخذه بها نقاد عصره .

غير أننا نرى فى نسيبه تسامياً روحياً واضحاً ؛ فلا نجد فيه وصفاً حسياً لصاحبته كما فعل كعب فى مدحته ، ولم يكثر من ذكر المواضع الحجازية مثل ذى سلم وكاظمة وإضم وأهداء التحية لها مع الريح والبرق على نحو ماتجده فى قصيدة البوصيرى ، وغيره من شعراء المديح النبوى السابقين أمثال الشريف الرضى ، ومهيار الديلمي ، وأنما نرى الشاعر يشكو آلام الغرام ،ويفصح عن تملك العشق قلبه ، وتصفيد المحبوبة له بسلاسل، حلقاتها من الوجد والألم ، وتفننها فى عذابه ، وهى موقنة بأنه لم يعشق غيرها أبد الدهر، ثم يتحدث الشاعر .. عما بذله من جهد فى إخفاء هذا الهوى عن الوشاة الانمين .

---

[1] - البديعيات : هو فن يوظف المديح النبوي لخدمة علم من علوم العربية ،وهو علم البديع ، وأول من ألف في هذا الفن هو علي بن عثمان السليماني الإربلي سنة ٦٧٠هـ ، وهو شاعر مصري نظم قصيدة لامية ، جعل في كل بيت فيها لوناً من ألوان البديع غير أنها لا تعد مما نحن بصدده ، إذ انها ليست في المديح النبوي ، فالبداية الحقيقية لهذا الفن هي قصيدة صفى الدين الحلى (٧٥٠هـ) التي عارض فيها البوصيرى وتقع في ١٤٥ بيتاً في كل بيت منها محسن أو أكثر من محسنات البديع ومطلع هذه القصيدة :

إن جنت سلعا فسل عن جيرة العلم واقر السلام على عرب بذي سلم

(راجع د. محمود مكي : المدائح النبوية ص ١٣٦ ، ط ١، لونجمان ، سنة ١٩٩١م ، وانظر: أيضاً ترجمة على بن عثمان الإربلى "فوات الوفيات " لابن شاكر الكتبي ج٣ ص٣٩- ٤٢ ط دار صادر ، سنة ١٩٧٤ ، تحقيق إحسان عباس ، أنظر أيضاً ديوان صفى الدين الحلى طبعة النجف سنة ١٩٥٦ ص ٤٧٤ ـ ٤٨٨) .

[2] - انظر مقدمة منحة المنان في مدح سيد الأكوان ص ٥-٦ ، طبعة دار العهد الجديد بالقاهرة سنة ١٩٥٦ .

[3] - مطلع قصيدة كعب بن زهير : بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

[راجع ديوان كعب بن زهير : ص ٦ ، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة] .

ولكن دمعه وسقمه فضح كل شيء ، ثم يلقى الشاعر اللوم على العذال والوشاة ، ويقول : إن قلوبهم سقيمة لم تذق يوماً طعم الهوى ، ولو ملك الحب شغاف قلوبهم لما عذلوا فى حب من يهوى . وقد ساق الأبنودى كل ذلك فى ثوب جميل تحس من خلاله بحرارة التعبير، وصدق العاطفة ، وفى هذه المقدمة بعض الصور الطريفة ، والمعانى المبتكرة الجميلة ، مثل قوله :

وَفِى فُؤَادِي بُذُورُ الحُبِّ قَدْ نَبَتَتْ   مُذْ كَانَ سَبَّابَتِى فِى المَهْدِ ثَدْىَ فَمِى

وقوله:

لَمْ يَكْفِهَا أَسْرُ قَلبِى وَهْوَ ذُو دَعَةٍ   مُبَرأً مِنْ كَبِيرِ الإِثْمِ والَلمَمِ
بَلْ صَفَّدتْهُ بأَغلالٍ سَلاسِلُهَا   صَوْغٌ مِنَ الوَجْدِ أو صُنْعٌ مِنَ الأَلَمِ
وَأَرْسَلَتْ مِنْ سَنَا أَلحَاظِهَا شُهُبًا   تَرمِى بِهَا مُهْجَتِى مِنْ شَاهِقِ الأُطُمِ

وقوله وقد لبس جرأته ووقف على أعتاب محبوبته :

لَبِسْتُ مِنْ جُرْأَتِى دِرْعًا، وَقُمْتُ عَلَى   أَعْتَابِهَا عَلَّهَا تُصْغِى إِلَى كَلِمِى
نَادَيْتُ يَا رَبَّةَ للحُسْنِ مَرْحَمَةً   بِاللهِ لا تَسْتَبِيحِى بِالغَرَامِ دَمِى
فَالقَتْلُ بِالهَجْرِ جُرْمٌ فِى نِهَايَتِهِ   كَالقَتْلِ بِالسَّيْفِ فَاخْشَى هَيْبَةَ الحَكَمِ

ويعد هذا النسيب لوناً من التعبير الرمزى ، يفصح به الشاعر عن حبه للنبى (ﷺ) وشوقه العميق له .

ثم ينتقل الشاعر فى الفصل الثانى من هذه المدحة إلى الحديث عن ذم الدنيا وزخرفها . ومافيها من تقلب وغدر، وتحول وجور واضطراب ، وكأن الشاعر فى حديثه عنها يعبر عن خلاصة تجربته فيها . وقد جاء كل ذلك فى شكل عظة مباشرة ، أو نصيحة موجهة ، مجسدا لأحزانها التى لاتصيب كل ذى رأى أصيل ، وأحزانها التى لاتنال إلاحليف التقى ، وأرباب الحجا ، مصوراً الدنيا ، وغدرها بصورة بشعة متباينة ؛ فمرة يصورها فى زهوها بالرقطاء ناعمة الملمس وبداخلها السم فيقول :

وَإِنْ زَهَتْ لانَ – كالرَّقطاءِ – مَلمَسُهَا   وَفِى حَشَاهَا نَقِيعُ السُّمِّ والأَلَمِ

ومرة أخرى يصور ماتحويه من متع بالجيفة التى تطفو فوق الماء يتجاذبها بخر الكلاب ، وماهو دون الوحش والرخم من الطيور .

تِلكَ الدِّيَارُ ومَا تَحْوِيهِ مِنْ مُتَعٍ   وإنْ تَرَاءتْ كَرَوْضٍ غَضٍّ بِالنِّعَمِ
فَإنَّهَا جِيفَةٌ تَطْفُو فَيَجْذِبُهَا   بُخْرُ الكِلابِ ودونَ الوحْشِ والرَّخَمِ

ومرة ثالثة يصورها بأضغاث الأحلام ، ورابعة بطيف الخيال ، وخامسة بسحابة صيف ، وسادسة بالسراب الذى يحسبه الظمآن ماءً فى الهجير فيقول :

فَكُنْ حَكِيماً ، ولا تَخْدَعْكَ بَهْجَتُهَا   فَلا أَرَاهَا سِوَى أَضْغَاثِ مُحْتَلِمِ

أو مِثْلَ طَيْفِ خَيَالٍ فى المنامِ سَرَى ... أو أنَّهـا كَسَحَابِ الصَّيفِ لمْ تَدُمِ
أمَا رَأيتَ سَرَابًا فى الفَلاةِ ضُحًى ... تَخَالُهُ الماءَ يَشْفِى غُلَّةَ لظَمِى
إنْ جِئْتَهُ لم تَجِدْ شَيْئًا فذا مَثَلٌ ... تُلقيهِ مِن غَدْرِهَا للحَاذِقِ الفَهِمِ

وقد أستطاع الشاعر فى هذه اللوحات الفنية أن يعرض لنا الدنيا فى صورة بشعة مخوفة، لنكون دائماً على حذر من غدرها ، وإن تراءت كما يقول (كَرَوْضٍ غضٍّ بالنِّعَمِ).

ثم ينتقل الشاعر فى الفصل الثالث إلى الحديث عن غفلة النفس والتحذير من هواها وعدم الإنقياد لشهوتها ومراقبة الله فى السر والعلن ، ووقف منها وقفة الناصح الأمين ، معترفا بذنوبه فقال :

والنَّفْسُ أمَّارةٌ بالسُّوءِ مُذْ وُجِدَتْ ... بالجُرْمِ تُغْرى وتَهْوَى زَلَّةَ القَدَمِ
فإنْ خَضَعْتَ لها صَالتْ عَلَيْكَ وإنْ ... تَسْطُو عَلَيْهَا بسَيْفِ الحَزْمِ تَنْهَزِمِ
فاخْشَ الهواجِسَ لا يَغْرُرْكَ مَبْسِمُهَا ... قَدْ يَبْسِمُ الثَّغْرُ والأحْشَاءُ في ضَرَمِ
وأكبَحْ جِماحَ الهَوَى واحْذَرْ غَوَائِلَهُ ... واهتِك حِماه ولَوْ فِى الأشْهُرِ الحُرُمِ
ألَدُّ أعدَائِكَ الدُّنْيَا وزَهْرَتُهَا ... والجَهْلَ والنفْسُ والشيطانُ فاعتصِمِ
لا تَتَّخِذْ مُنْصِفًا مِنْهَا وَإنْ ظَهَرَتْ ... دَلائِلُ النُّصْحِ والأخْلاصِ فأتَّهِمِ
وَرَاقِبِ اللهَ واغْسِلْ ما اجْتَرَحْتَ مِنَ الـ ... آثامِ بالدَّمْعِ والأوزارِ بالنَّدَمِ
وارْجِعْ إلى النَّفْسِ وابْرَأْ مِنْ وَسَاوِسِهَا ... بَرَاءةَ الذِّئْبِ والصِّدِّيقِ واستَقِمِ
يا نَفْسُ أسْرَفْتِ فِى غَيٍّ وَقَدْ وَهَنَتْ ... مِنِّى القُوى وارتَدَتْ ثوبًا مِنَ الهَرَمِ

ويبدو من خلال هذه الأبيات تأثر الأبنودى بأبيات البوصيرى ، والتى يحذر فيها من هوى النفس حيث يقول : [1]

والنَّفْسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى ... حُبِّ الرضاعِ وإنْ تفطِمْهُ ينفطِمِ
فاصرفْ هَواها وَحَاذِرْ أنْ تُوَلِّيَهُ ... إنَّ الهَوَى ما تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ
وَرَاعِهَا وهىَ في الأعمالِ سائمةٌ ... وإنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ المرْعَى فلا تُسِمِ

وإن كانت أبيات الأبنودى لا تقل عن هذه الأبيات روعة وجمالاً .

ثم يصل الشاعر فى الفصل الرابع بعد خمسين بيتاً إلى موضوعه الرئيس وهو مدح النبى (ﷺ) ، ويستغرق هذا المديح النبوى اثنين وعشرين بيتاً يتحدث فيها عن فضائل المصطفى (ﷺ) وكمائل شمائله ، وأصطفاء الله له ، وفى هذا المديح يردد الأبنودى المعانى القائمة فى ثوب جديد كأنها من إبداعه :

مُحَمَّدٌ بُغْيَةُ الخَلاقِ صَفْوَتُهُ ... مِن قَبْلِ آدَمَ والأكْوانُ فِى عَدَمِ
أصْلُ الوُجُودِ نَوَاةُ الكَوْنِ قَاطِبَةً ... ومَبْعَثُ النُّورِ مُجلِى غَيْهَبِ الظُّلَمِ

---

[1] - ىنظر : ديوان البوصيرى : ص ١٦٦.

أىْ أوّلُ الخَلْـق فـى المعْنـى وآخِـرُهُمْ جـسْـمًـا وأشْـرَفُ خَلْـق الله كُلّهـم
فـالـرُسُلُ مـن آدم لابـن البَتُـول وإنْ جـادَ الزّمَـانُ بهمْ مِـن سـالف الأمَم
كُلُّ آتـى رافِـعًـا أعـلامَ بعـثـتِـهِ فـهُـو الأمِـيـرُ وهـم كـالجُنْدِ والحَـشـم
وإنْ أتَـوْا قـبْلَـهُ بـالآى مُعْجـزةً فـالمـصْـطفى مَـصْـدَرُ الآيَـاتِ والحِكَـم
وَهُـوَ المشـفّـع يَـوْمَ العَـرْض فى أمَـم إذ يَـسْـبَحُ الأنبـيـا فـى لجّـةِ الـوَجَـم

إن فكرة الحقيقة المحمدية التى نجدها عند الأبنودى ، وغيره من الشعراء المحدثين أمثال : البارودى ، وشوقى ، وغيرهما ، أو من سبقهم من شعراء المديح النبوى المتأخرين أمثال : ابن الساعاتى (ت ٦٠٤هـ) ، والصرصرى (٦٥٦هـ) ، والبوصيرى وغيرهم ، ترجع هذه الفكرة إلى الفكر الشيعى الإسماعيلى الذى كان مذهب الدولة الرسمى فى ظل الدولة الفاطمية بمصر حيث تبدو هذه الفكرة كامنة كما قال الدكتور محمود مكى فى كتابات (دعاة الفاطميين) [١] .

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن نواة هذه الفكرة الصوفية توجد منذ القدم لدى الحسين ابن منصور الحلاج (ت٣٠٩) فيقول : " يبدو أنه أول من أعد لفكرة الحقيقة المحمدية ، وأن محمداً بتلك الحقيقة لا بصورته الحسية يُعد مبدأ العالم ، إذ هو النور الذى تفجرت من ينابيعه جميع أنوار النبوات ، بل هو مبدأ الوجود كله ونبعه الفياض السابق لكل موجود ، أو بعبارة أخرى هو الحقيقة الإلهية السارية فى الوجود " [٢] ، والحقيقة أن مصدر هذه الفكرة ليس الحلاج ولادعاة الفاطميين ، وإنما مصدره الرئيسى حديث (جابر بن عبدالله الأنصارى) الذى رواه عن سيدنا رسول الله (ﷺ) ، وهذا الحديث مشهور عند الصوفية ونصه :

" عن جابر بن عبدالله الأنصارى (رضى الله عنه) قال : قلت يارسول الله بأبى أنت وأمى ،خبرنى عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل خلق الأشياء ؟ قال : ياجابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره ، فجعل هذا النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى ولم يكن فى هذا الوقت لوح ولا قلم ، ولا جنة ولا نار ، ولا ملك ، ولا سماء ، ولا أرض ، ولا شمس ، ولا قمر ، ولا أنس ، ولا جن ، فلما أراد الله أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء ، وخلق من الجزء الأول القلم ، ومن الجزء الثانى اللوح ، ومن الثالث العرش ، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول حملة العرش ، ومن الثانى الكرسى ، ومن الثالث باقى الملائكة ، ثم قسم الجزء الرابع إلى أربعة أجزاء ، وخلق من الول السماء ، ومن الثانى الأرضين ، ومن الثالث الجنة والنار ، ثم قسم الرابع إلى أربعة أجزاء ، وخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ، ومن الثانى نور قلوبهم ، ومن الثالث نور أنفسهم وهو التوحيد لا إله إل الله محمد رسول الله " رواه عبد الرازق " [٣] .

١ - راجع : د. محمود مكى : المدائح النبوية ص: ٩٩ .
٢ - انظر : د. شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ج٤ ص ٤٨١ الطبعة الثالثة دار المعارف .
٣ - راجع : العارف بالله يوسف بن إسماعيل النبهانى " رحمة الله على العالمين فى معجزات سيد المرسلين " ج١ ص٣٥ تحقيق محمد مصطفى أبوالعلى مطبعة مكتبة الجندى سنة ١٩٧٢م .و الحديث موضوع لا أصل له في شيء من كتب الحديث ، وإنما هو مشتهر على ألسنة الصوفية

وقد نقل إبن الجوزية عن ابن تيمية أن حديث جابر عن نور النبى حديث ضعيف.

ويقول العارف بالله أحمد رضوان فى قوله : " والحقيقة إذا كان هناك ضعف عن رواة الحديث فإنه فى الأسناد أما نص الحديث فصحيح " [١].

ويبدو أن الحلاج ودعاة الفاطميين أخذوا هذه الفكرة المحمدية من هذا الحديث النبوى ، ثم أتبعهم بعد ذلك شعراء المديح النبوى ، ومنهم الأبنودى .

ثم ينتقل الشاعر فى الفصل الخامس إلى الحديث عن مولده (ﷺ) ، ويكرر نفس الفكرة السالفة من أمر الحقيقة المحمدية السابقة على خلق الكون وانتقاله (ﷺ) في الأصلاب والأرحام حتى وصل إلى رحم والدته السيدة آمنة بنت وهب :

مُحَمَّدٌ مَنْشَأ الأكوان علَّتُهَا ... كما روَى جابرٌ فى أصدَق الكَلِم
لولاهُ لاستَتَرتْ تلك العوالمُ فى ... ستْر الخفا وانْطوَتْ فى حَيِّز العدم
ولَمْ يَزَلْ نورُه فى الغيبِ يحفظهُ ... خَيْرُ الأماكِنِ من صُلبٍ ومن رحم
حتَّى تَبوَّأ يومًا وجْهَ آمِنةٍ ... وآن للدهر أن يصفو مِنَ العتم
فاختارَهَا الحَقُّ أمًا للشَّفِيعِ غدًا ... يا حبَّذا أمَّ خَيْرِ العُرْبِ والعجم
ونالتِ الفخْرَ أنْ بالمصطفى حَمَلتْ ... فى لَيْلةٍ من ليالى الأشْهر الحرم

ثم راح الشاعر يبسط الحديث عما صاحب مولد الرسول (ﷺ) من معجزات وكرامات فى لوحة فنية جميلة يشرق فيها الكون كله بالبهجة والسرور لمولده (ﷺ) فيقول:

أنْعِمْ بها لَيْلةً قد أسْفرَتْ فبدا ... بَدْرُ المحَيّا فأجْلى حالك البُهم
قد قلَّدَ الدَّهْرُ فى أيَّام طَلْعَتِهِ ... قلائدَ العزِّ والإسعاد والشَّمَم
وأعْلنتْ ألسُنُ الأكْوان قائلةً ... ها قدْ أتى اليُسْرُ بعْد العسر والإزم
وهَيَّجَ السَّانِحاتِ الغُرَّ مَوْلدُهُ ... واستَقْسَمَ النَّاسُ بالأقداحِ والزُّلم
لقد سَرَى نورُه لَيْلاً فبان لمنْ ... بالبيتِ أقْصى قصور الشَّامِ والعجم
والجِنُّ غنَّتْ على عُودِ السُّرُور كما ... قد غرَّدَ الطَّيرُ بالألحان والنغم
أما الوُحُوشُ فقرَّتْ بالبشائر كالـ ... حِيتَان فى البَحْر والآسادِ فى الأجم

ونحوهم ، وقد سبق إلى ذلك السيوطي، فقد سئل عن هذا الحديث، كما في الحاوي للفتاوى جـ١ ص ٣٢٣، فقال: الحديث المذكور في السؤال ليس له إسناد يعتمد عليه ". انتهى. وحكم بوضعه الشيخ محمد أحمد عبد القادر الشنقيطي-رحمه الله- في رسالة خاصة سماها: "تنبيه الحذاق على بطلان ما شاع بين الأنام من حديث النور المنسوب لمصنف عبد الرزاق" .وأقره عليه وقرظ رسالته الشيخ عبد العزيز ابن باز-رحمه الله-.وقال اللكنوي: (قد ثبت من رواية عبد الرزاق أولية النور المحمدي خلقاً ، وسَبْقَته على المخلوقات سبقاً وقد اشتهر بين القصاص حديث : ((أول ما خلق الله نوري)) وهو حديث لم يثبت بهذا المبنى وإن ورد غيره موافقاً له في المعنى) [انظر :الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة:ص٤٣].

[١] - انظر : النفحات الربانية من أحاديث وأقوال وتوجيهات مولانا العارف بالله الحاج أحمد محمد رضوان : مطبعة وزارة الأوقاف ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٨١.

ويكمل الشاعر لوحته التعبيرية الرائعة لمولده (ﷺ) وينقل لنا صورة العرس الذى أقيم فى الملأ الأعلى إبتهاجاً بمولده (ﷺ) ، وقد أوصدت أبواب النار وفتحت أبواب الجنة ، وفاح عبيرها حتى عطر الكون :

وأسبغَتْ حُلَلُ الأفراح فى المَلإ الـ أعْلى على الحور والولدان والخَدَم
بَانَتِ النَّارُ والأبوابُ موصَدَةٌ وفُتِّحَتْ جَنَّةُ المأوَى لمغتنِم
وفاحَ عَرْفُ الشَّذَا مِنْهَا فأرَّجَ ما فى عَالمِ الملكِ مِنْ زهْر ومِنْ نَعَم

ثم يأخذنا الشاعر إلى لوحة فنية أخرى صور فيها حال الكفار واعداء الإسلام ساعة مولده (ﷺ) ، وما دب فى قلوبهم من رعب ، وروع ، ووجم ، وما لحقهم من خراب ودمار فقد جفت بحيرة ساو ، وهوى عرش كسرى ، وتصدع إيوانه ، وخبت نار الفرس ،ونكست الأصنام حول الكعبة :

وكَمْ بَدَا بَاهِرُ الآيات فامتلأتْ مِنْهَا قلوبُ العِدَا بالرَّوع والوهم
فكانَ ما كَانَ من أمْرِ البُحَيْرَةِ إذْ غاضَتْ ولم يبق فيها قطرَةٌ لِظَمِى
وَقدْ هَوى عَرْشُ كِسْرَى الفرس وانْصَدعَ الـ إيوانُ أعْجُوبَةُ الإبْداع فى الأمَم
كما خَبَتْ نَارُهُمْ والبؤسُ حَلَّ بهم وأصْبَحوا فى نكالٍ محدِق نهم
ولاتَسَلْ عَنْ قُرَيْشٍ حِينَمَا شَهِدَتْ أصنامها نُكِسَتْ والخطبَ فى عِظَم
عادُوا وَقدْ أفعِمَتْ بالرُّعْبِ أنْفُسُهُمْ تَساءَلوا عَنْ وقوع الحادِثِ العَمَم

أما الفصل السادس فقد تحدث فيه عن سيرته (ﷺ) وعظمته ، وأخلاقه المثالية وتأديب الله له ، وما أتصف به من مكارم وصفات حميدة ، كالعفة والصدق ، والعدل والرحمة والرأى السديد والوفاء والبر والصبر وغيرها من صفات اتصف بها الرسول (ﷺ) وتحدثت عنها كتب السيرة النبوية منها :

تَبَارَكَ الله ما أسْمَى مَكارمَ مَنْ مَولاهُ أدَّبَهُ فى اليُتْمِ واللُّطم
فشَبَّ شَهْمًا أبيّاً حَاذِقا فَطِنًا عَفا صدوقاً أميناً طاهِرَ الذِّمَم
عَدْلاً حَكيمًا سَديدَ الرأى مِنْ صِغر وَقولُهُ الفَصْلُ فى سِلْم ومُخْتَصم
بَرّاً وَفِيّاً صَبُوراً لانَ جَانِبُهُ حِلْمًا إذا لَمْ يُمَزَّقْ سَاترُ الحُرم
غَيْثًا غياثًا نَدِىَّ الكَفِّ أجْودَ مِنْ صَوْبٍ يَفِيضُ فَيَعْلُو أرْفَعَ القِمَم

والفصل السابع خصصه للحديث عن معجزاته (ﷺ) ، وما ظهر على يديه من خوارق العادات ، ولكن فى تناوله لهذه المعجزات تناولها بصورة مختلفة عن معاصريه وسابقيه ، فقد ألبس الحديث عن هذه المعجزات ثوب الإطناب ، وكان يحاول إستقصاء المعنى الواحد إلى أبعد حد .

ففي حديثه عن بركة يمينه نجده يتتبع هذا المعنى تتبعاً دقيقاً ، فيقول إن الله أودع يمينه سراً يخفى وصف أصحاب العقول الناضج ، وبها كانت بيعة الرضوان ، ومنها نبع الماء فشرب الناس وتوضئوا ، وببركتها كثر الطعام وأكل منه المئات دون أن ينقص منه

شنياً (وهو يشير بذلك إلى ما كان يوم الخندق وإطعامه بيده ألف رجل من صاع شعير وعناق) ، وبها رد الرسول (ﷺ) عين قتادة بن النعمان حين أصيب يوم أحد حتى وقعت على وجنتيه فردها (ﷺ) فكانت أحسن عينيه وأصلحهما حتى فارق أنفاسه لم يصبها الم ، وببركتها درت الشاة العجفاء لبناً كثيراً فأسلم صاحبها ، فكان له نعم النصير على الأعداء :

أنْعِمْ بيُمْنَاهُ فالرَّحْمنُ أوْدَعَهَا ... سِرًا سَمَا وصُفَهُ عَنْ فِكرَةِ الفهم
كانَتْ بهِ بَيْعَةُ الرِّضْوانِ فانْبجَسَتْ ... فى كل ذى بَيْعةٍ عِينٌ من الحِكم
وأحْيتِ القومَ نَفْسًا حين أعورَهُمْ ... زَادٌ ومَاءٌ وحَلُّوا دارةَ العَدم
بالصَّاع قدْ أطْعَمَتْ ألفا ذَوى سَغَبٍ ... كما تُروَّى بِصَاع الماءِ ألف ظمى
وحينما مَسَّتِ الرمْداءَ راحَتُهُ ... عَادَتْ كنَرْجِسَةٍ فى الرَّوْض لم تسم
ويومَ بالخَدِّ سالتْ عَيْنُ صاحِبِهِ ... إذ الجُمُوعُ تلاقَتْ والوَطِيسُ حمى
رُدَّتْ وقَدْ كانَتِ النَّجلاءَ ما بَقِيتْ ... أنفاسُهُ لم يُصِبْهَا طارِقُ الألم
وَدَرَّتِ الضَّرْعُ - إذْمَرَّتْ بهَا - لبنًا ... والشَّاةُ عجفاءُ قَدْ ألقتْ يدَ السَّلم
قصَّتْ على بعلِهَا ما شاهدَتهُ ضُحًا ... قَعِيدَةُ الدَّار من آثار ضَيْفِهِم
فقالتَ هذا ورَبِّ البيْتِ شَافِعُنا ... فى يَوم فَصْلِ القضَا والنَّاسُ فى وجم
هذا الأمِينُ فإن ألقاهُ كُنتُ لهُ ... نِعْمَ النَّصِيرُ عليهم يَوم مختصم

ثم ردد الأبنودى ماجاء فى كتب السيرة من هذه المعجزات كانشقاق القمر نصفين وسجود الشجرة وسيرها نحوه (ﷺ) ، وتحينها له ، وتظليل الغمام له إذ يمشى . وحنين الجزع له (ﷺ) ، وسماع صوت الجزع ، وتسبيح الحصا بين يديه .. إلى آخر هذه المعجزات وخوارق العادات :

شامُوا الغمامةَ إذ يَمْشى تُظلِّلُهُ ... من لافِح الحرّ أو مِنْ قارس الشَّبم
وفى يديه حَصَى البَطحاءِ سَبَّحَ والـ ... أشْجارُ حَيَّتْهُ بالفُصْحَى من الكلم
قالوا : ادْعُهَا إن تَكُنْ دَعْوَاكَ صَادِقَةً ... جَاءتْ فُجِئْنا وغَيْرَ الصِّدْقِ لم نرم
فانْشَقَّ نصفَيْن نِصفٌ إذْ دَعَاهُ على ... أبى قُبيسٍ ونِصفٌ أسْفَلَ العلم

وكان لشوقي أمير الشعراء تعبير رائع فى معجزة تظليل الغمام له (ﷺ) اروع بكثير من تعبير الأبنودى ؛ إذ يقول شوقى إن الغمامة التى ظللته إنما كانت تستظل به :

وظلَّلتْهُ فصارَتْ تَستظِلُّ بِهِ ... غمَامَةٌ جَذَبَتْهَا خِيرةُ الدِّيَم

ويرى الدكتور محمود مكى أن الإسلام لايعتد كثيراً بهذه المعجزات ، ولم يرد بعضها فى كتب السيرة الأولى ، فإن عامة المسلمين يرددونها فى إنبهار وإعجاب ، وقد ضخمت الخيال الشعبى كثيراً ، وأضاف إليها تفاصيل عديدة شائقة ، قد لاترضى العقل ، ولكنها تستهوى الأخيلة ، وتستثير العاطفة الدينية عند الجماهير [1] .

[1] - راجع المدائح النبوية د. محمود مكى ص ١١٥ ، ١١٦ ط لونجمان سنة ١٩٩١.

ويتحدث الأبنودي في الفصل الثامن على إمتداد أربعين بيتاً عن شرف القرآن ومدحه ، وعن معجزته وفضله ، وعن عجائبه التى لاتفنى ، وعن آياته التى لاتخفى ، وما تجد عند تلاوته من حلاوة وطلاوة ، وكأنه سلس يسقى على ظمأ وما فيه من جودة النظم ، وإحكام البناء ، وحسن التأليف ، وروعة الأسلوب ، وبديع الإيجار ، فقد أحكمت آياته نسجا ، وسمت بلاغته إلى الحد الذى لم يستطع عنده أحد من البشر أن يحاكيه ، أو أن يمنى نفسه بذلك .

ثم راح يتحدث عما يناله معشر القراء من عظيم الفضل ، ويبشرهم بالجنة ، وأرفع الدرجات ، وما ينتظرهم من نعيم فيها . وأطنب الشاعر فى فضل القرآن وشرفه، فقال : هو الشفاء للقلوب والبلسم الواقى من الألم ، والحصن المنيع من الأعداء ، والكاشف لكل خطب وغم .... إلخ تلك المعانى :

أوتـيتَ مِنْ مُـحكم التنزيـل مُعْجِزَةً ... أمْضَى مِنَ المـصْلَتِ المـصقُول فـي الإزَمِ
ذِكْـرتُ بِـهِ نُزِّلَ الـروحُ الأمينُ عـلى ... طِـةِ مِنَ اللّـوحِ مَـحْفُـوظًا مِنَ الـهـضـمِ
كَـنْزٌ تَكَشَّـفَ مِنْـهُ الـسِّرُّ فـي حِجَـجٍ ... بـيضٍ فـأغـنى الـورَى مِنْ هَطلِـهِ الـعَمَـمِ
يَفْنى الـزَّمـانُ ولا تَـفْنى عَـجائِبُـهُ ... وزَهْـرُهُ الـغـضُّ لـمْ يَـذبُـلْ ولـمْ يَـنَـمِ
بـلْ كلـَّمـا رُدِّدَتْ آيـاتُـهُ لـبِـسَـتْ ... مِـنَ الـطـلاوةِ ثَـوْبًـا وافِـرَ الـقِـيَمِ

وفى الفصل التاسع يتناول الأبنودى : معجزة الإسراء والمعراج فى ثمانية عشر بيتا . أبتدأها بالثناء على النبى (ﷺ) كعادته في أسلوب كساه ثوب الإطناب ، مكرراً نفس المعانى السالفة الذكر بأنه (ﷺ) صفوة الخلاق في القدم ، وهو السر فى الإيجاد قاطبة ، وهو الرحمة المهداه للأمم ... ثم ينتقل من ذلك إلى الحديث عن إسراء الرسول ليلاً من المسجد المكى إلى المسجد الأقصى ، ثم عن معراجه فى السموات السبع بالجسم والروح معاً ، وكيف كان قاب قوسين أو أدنى (سورة النجم آية ٩) . وهناك أم الأنبياء جميعاً فى الصلاة ، وقد أعطاه الله الكثير من المنح والفضائل دون سائر الأنبياء :

ومَتَّع الطَّرْفَ فـي ذاتٍ قـدِ أحْتَجَبَتْ ... عَـنْ غـيْـرِ ذاتِـكَ مِـنْ بَـدْءِ لـمِخْتَتَمِ

وأخذ الأبنودى يبسط الحديث فى وصف معجزاته (ﷺ) في ثوب كساه الروعة ، والجمال ، والجلال ، مستوفياً جوانب الصور التى يرسمها فى وصفه (ﷺ) ، مستعيناً على إبراز ذلك بالصور الخيالية الجميلة ، والعبارات القوية المتسقة ، والألفاظ الجزلة ، وتلوين طرائق التعبير من أخبار ، إلى إستفهام ، إلى أستنكار ، إلى نداء حتى يبلغ الكلام أثره المرجو فى النفوس ، وله فى هذه المعجزة تعبير رائع؛إذ جعل البيت المقدس يختال فخراً بالنبى (ﷺ) ، وأن وطأة قدمه (ﷺ)كسته سندس العز :

واخْتَـالَ فخْـراً بـه البيْتُ المقدَّسُ إذْ ... كَـسَتْهُ سُنْـدُسَ عِـزٍّ وطـأةُ الـقـدَمِ

ثم ينتقل في الفصل العاشر إلى الحديث عن هجرته (ﷺ) فى خمسة وأربعين بيتاً . بدأها بسيرة ذاتية للمصطفى (ﷺ) . وكيف كان وهو فتى يوم غار حراء ، لعبد الواحد المنعوت بالقدم ، بينما كان أهله عاكفين على عبادة الأصنام ، ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن نزول

الوحى عليه (ﷺ) ، وقد أثر ذلك فى نفوس الكفار ، ثم فقده لزوجته خديجة وعمه أبى طالب. وأشتداد أذى الكفار له وللمسلمين ، وتذرعهم بالصبر إرضاءاً لخالقهم ، وتيقنهم بأن عقبى الدار لهم ، وأن متعة النصر سوف تنسى لوعة الأزم .

كما تحدث عن مساندة الأنصار ، ومعاهدتهم له (ﷺ) بأن يذودوا عنه كل أذى ، وكيف كان هذا الصنيع منبع الخير لهم . ثم يتحدث عن طيب معاملتهم للمهاجرين الممزوجة بالحب والوفاء والتضحية .

ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن قريش ، ودار ندوتهم ، وكيف دبروا قتل الرسول (ﷺ) ، ثم نزول الوحى عليه وإنباه بمكيدتهم ، والسماح له بالهجرة إلى المدينة . وكيف مر (ﷺ) على الأعداء وهو يحثو التراب عليهم فأصابهم بالعمى جميعاً . ثم يتابع سيره والصديق يصحبه ، يستصبحان بنور الحق فى الظلماء . ثم يصف الشاعر الغار الذى نسجت العنكبوت خيوطها ، وعششت على بابه الورقاء ، والتى كانت تحييه بأنغامها الجميلة ، هو وصاحبه ، ويوضح الشاعر كيف كانت خيبة أمل الكفار فى اللحاق بهما ،

فانقلبوا والغيظ يشتعل فى صدورهم . ثم وصف حال أهل المدينة قبل وصول الرسول إليها ، وما كان بينهم من شقاق وعداوة ، وتناحر ، فصاروا إخوانا متحابين بعد وصوله (ﷺ) إليها ، وكيف سطعت شمس الهداية فى ربوعهم ، متمسكين بحبهم للمصطفى (ﷺ) ، يذودون عنه بأرواحهم ، وأموالهم ، مبتغين فضلا من الله ورضوانا .

أما الفصل الحادي عشر فتحدث فيه عن جهاده (ﷺ) في أثنين وأربعين بيتا ، بدأها بتعظيم حادث الهجرة ، وكيف كانت نواة عز للرسول (ﷺ) وأصحابه ، ثم أثنى على المهاجرين والأنصار الذين نصروا الرسول (ﷺ)وفروا بدينهم ، وساعدوه وآزروه ، وأعز الله بهم الإسلام :

أعْظِمْ بها هِجْرَةً عزَّ الأمينُ بها ... وَعَزَّ مَنْ هَاجَرُوا فَرًا بدينهم !!
يا حبَّذاً خَيْرُ مَنْ آووا ومَنْ نَصَرُوا ... لخَيْرِ هَادٍ أتى في الأعْصُرِ الدُّهْم
قَوْمٌ بهمْ وَطَدَ الإسْلامُ وانْتَشَرَتْ ... أعْلامُهُ كانْتِشار النَّجْمِ فى البُهَم

ثم يتحدث الشاعر عن أمر الله لرسوله (ﷺ) ، بأن يجاهد الكفار ، ويغلظ عليهم . ويخفض جناح الرحمة للمؤمنين ، ويستغفر لهم ، ولايخاف فى الله لومة لائم ، ولا يحفل بالكفار الذين كفاه الله شرهم ، وألبسه جلبابا من العصم وأيده بنصره :

فَأنْزَلَ الله : جَاهِدْ كُلَّ طاغِيَةٍ ... واشْدُدْ على كُلِّ كَفَّارٍ ألَدِّ عَمِ
واسْتأصِلِ الكُفْرَ حَتَّى لا يَكُونَ سِوَى ... دِينِ السَّمَاحَةِ فى حِلٍّ وفى حرمِ
واخْفِضْ لِمَنْ آمَنُوا منك الجَنحَ فَهُمْ ... أوْلَى بِرَحْمَاكَ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِهِم
إنَّا كَفَيْنَاكَهُمْ لا تَحْفِلَنَّ بِهِمْ ... أنْتَ المغشَّى بِجِلْبَابٍ مِن العِصَم
أنْتَ المُؤَيَّدُ بالآيَاتِ بَاهِرةً ؛ ... سَيُهْزَمُ الجمعُ يَوْمًا شَرَّ مُنْهَزِم

ثم يشيد الشاعر بشجاعته (ﷺ) في المعركة ، وشجاعة أصحابه ، وانتصاراتهم الراجعة إلى تأييد الله له (ﷺ) وإلى قوة إيمان أصحابه ، وما بثه فيهم من روح الفداء ، والتضحية :

فاستَجْمَعَ الليثُ لِلهيجا بَرَاثِنَهُ ... وصاحَ فانْقَضَّ ما لِلقومِ مِنْ صَنَمِ
وَصَالَ صَوْلَةَ نسْرٍ بَيْنَ سِرْبِ قطا ... فضَاقتِ الأرْضُ ذرْعاً فِي وُجُوهِهم
والرُّعْبُ لمْ يُلْفِ مَثْوًى غيرَ أنْفسِهمْ ... فأيْقنوا أنَّهُمْ فِى دَارِ العَدَمِ !!
وَخَارَ ما بِالعِدَا مِنْ عَزْمَةٍ وَقوَى ... قدْ طالمَا قهرت بالأمْسِ كلَّ كَمِى
إذْ شَاهَدُوا رأىَ عَيْنٍ حَوْلَ مَطْنبِهِ ... صَحْباً صَفا حُبُّهُمْ للمفْرَدِ العَلَمِ
مِنْ صَادِقِ العَزْمِ فِى حَزْمٍ وَدَاهِيَةٍ ... وَبَاسِلٍ للعِدَا بالسَّيْفِ مُصْطَلِمِ
لا غَرْوَ إنْ مزَّقوا أشلاءَهُم فهُمُ ... بالنصر قد أيِّدُوا فى الحرْبِ والسَّلَمِ
فاستشْهدِ الفرْسَ والرُّومَ الألَى لبسُوا ... ثوبَ الصَّغَارِ ولاقوا شَرَّ مُنْهَزَمِ
وَسَلْ بَنِى قَيْنُقاعَ والنَّضِيرِ وَسَلْ ... غطفانَ ، مَاذا رَأوْا مِنْ شِقْوَةٍ بِهِمِ
وَسَلْ حُنَيناً وَسَلْ يَوْمَ السَّقِيفَةِ والـ ... يَرْمُوكِ تُنْبِئْكَ عَنْهُمْ أصْدقُ الكَلِمِ
قوْمٌ قد اسْتَعْذَبُوا وِرْدَ الجِهَادِ وَقدْ ... شامُوا سَعَادتهمْ فى كلِّ مُصْطَدَمِ
فحُبُّ أحْمَدَ للهَيْجاءِ يَحْفِزُهُمْ ... والنَّصْرُ قائِدُهُمْ فِى أىِّ مُلتحِمِ

على هذا النحو أخذ الأبنودى يطنب فى الإشادة بشجاعة الرسول (ﷺ) ، وشجاعة من إلتف حوله من صحابته ، ويشير إلى مدى حبهم له ، وتفانيهم فى طاعته ، ثم يختم هذه الأبيات بعجزه الشديد عن مدح الرسول (ﷺ) ، ويرى أن العجز عن مدحه مدح ، فمنتهى مدحه (ﷺ) معجزة ، فمثله كما قال واصفه :

فمُنتهَى مَدْحِ خيْرِ الخلْقِ مُعْجِزَةٌ ... والعَجْزُ عَنْ مَدْحِهِ مَدْحٌ لدى الفهِمِ
قدْ قالَ ناعِتُهُ : مِثْلَ المُشفَّعِ ما ... عَيْنٌ رأتْ ، أو نَرى فى النَّاسِ كُلِّهِمِ

ويشير الأبنودى فى البيت الثانى إلى قول الشاعر :

وَأجْمَلُ مِنكَ لمْ تَرَ قطُّ عَيْنِى ... وَأكْمَلُ مِنْكَ لمْ تلِدِ النِّسَاءُ
خُلِقْتَ مُبرأً مِنْ كلِّ عَيْبٍ ... كأنَّكَ قدْ خُلِقْتَ كمَا تشَاءُ

ويأتي الفصل الثاني عشر ، والأخير من قصيدته فى خمسين بيتاً يتوسل فيها بالرسول (ﷺ) ويشرح حبه له (ﷺ) ، وكلفه به ، وشوقه لزيارة الروضة الشريفة معترفاً بكثرة ذنوبه ، نادماً على ما اقترفه من آثام ، وراغباً فى المغفرة ، طامعاً فى شفاعة الرسول (ﷺ) له لغفران تلك الذنوب ، وهو لايبتغى من مديحه شيئاً من متاع الدنيا إلا أن يكون الرسول (ﷺ) ملاذه يوم القيامة إذا عز الملاذ :

يا أكْرَمَ الخلْقِ يا مَنْ قالَ أدَّبَنِى ... رَبِّى فأحْسَنَ تأدِيبِى لأنْتَ سَمِى

مَلَكْتَ قلبى بأخلاق خُصِصْتَ بها ... دونَ الورَى منحَة من بارى النسم
إنى لصبٌ مُعَنّى والِهٌ كَلِفٌ ... مُتيّمٌ بسواكَ - الدَّهرَ - لم أهِم
يَهتزُ عُودِى اهتِزَازَ الغُصنِ حَيثُ سَرَى ... فى مَسْمَعِى ذِكْرُكَ المرْفُوعُ فى القِدَمِ
وأعْيُنُ القلبِ يَقظى مُذْ حَللتَ به ... إنْ يَكْتَحِلْ ناظِرى بالنوم لم تنم
وَبذْرُ حُبِكَ فى السَوداءِ مَنْبتة ... وشَاهدى مَدْمعى الهتَّانُ أو سَقَمى
وفى الحَشَا لوْعَة لا لا أبُوحُ بهَا ... فما على الحبِّ يَخْفى منشأ الألم
فالبُعْدُ دانى وقربى منكَ ناجعَةٌ ... إنْ شِئتَ فاصلِمْ عُضَالِى أىَ مصْطلم
وليسَ لى مُبتغَى إلا شُهودُ ثرَى ... مِنْ روْضَةٍ أنتَ فيها البدْرُ فى الظلم
فكُنْ مَلاذى إذا عَزَّ الملاذُ غدًا ... وجِىءْ بى فى قيُودِ المذْنِبِ الآثم
فكم رَكبْتُ مُتونَ الطَّيشِ فانبَعثتْ ... بى بيْنَ خُوَّانِ عَهْدٍ ناقضِى ذِمَمِ
وَلجْتُ أبْوَابَ كُبْرى المُوبقاتِ وَمَا اسْتَحْيَيْتُ مَنْ مُبْدِعِ الأكْوان مِنْ عدم
وَجِئتُ إذا تَخرُّ الراسِيَاتُ لِـ ... ـهَـدًا ويَهْوى انهيَاراً أرفعُ القِمَمِ
وَضاعَ وقتُ الصِّبا لهوًا ومهزلة ... ولم يَسطر سِوَى الإيمان لى قلمى !

وفى خشوع يتسم بالصدق ، وحرارة العاطفة يرفع الشاعر إبتهالاته إلى الله سبحانه وتعالى ؛ ليغفر ذنبه ، ويقبل توبته ، وأن يجمع قلوب المسلمين ، ولايشمت بهم الأعداء ، وأن يغفر ذنوبهم ، ويوحد كلمتهم :

يا غافِرَ الذَّنبِ فاغفِر ذنبَ مُعْترفٍ ... يا قابلَ التوبِ فاقبَل توبة النّدم
إنّى أتيْتُك مِن باب الشّفيع وَمَنْ ... من بابهِ جاءَ يَرجُو العَفوَ لم يُضَم !!
فلا تَكِلْنِى لِنفسِى يوم لا وزرَ ... واقٍ ولا سَيِّدٌ يجزى عن الخدَم
يا ربِّ واجمَعْ قلوبَ المسلمينَ ولا ... تُشْمِتْ عَدُوا بهم واغفِرْ لِذنبهِم
وَقوِّ فى كلِّ صَقعٍ رَبطَ وحدتِهم ... وانْشُر لهُم في الورى مطوِىَّ عِزِّهِم

ثم يختتم الأبنودى قصيدته كما فعل البوصيرى ، وغيره من شعراء المديح النبوى بالصلاة والسلام على رسول الله (ﷺ) ، إلا أنه يطنب فى صلاته ؛ ويزيد عليهم بالصلاة على الآل والصحابة ، والتابعين ، ومن ساروا على نهجه من العرب والعجم ، وكأنه إمامٌ على منبر :

فاسْكُبْ هواطِلَ مِن مُزْنِ الصَّلاةِ على ... خَيرِ البَرِيَّةِ فِي الإصبَاحِ والغسَم
والآل والصَّحْبِ ثُمَّ التابعِينَ وَمَنْ ... سَاروُا على النهج من عُربٍ ومِن عَجم
ما لاحَ نجمٌ وما حَنَّ المشُوقُ إلى ... قاعٍ حَوَى خيرَ مَبْدوءٍ ومُخْتتم

ثانيا - المولديات ، الحوليات

نعنى بالمولديات والحوليات هنا الإحتفالات التى تقام فى بعض البلدان الإسلامية ، وخاصة مصر ، كالاحتفال بمولد المصطفى (ﷺ) ، وآل بيته ، وأولياء الله الصالحين ، وعلمائه العارفين الذين ينتسبون للبيت النبوى ، ومنهم العارف بالله أبو الحسن الشاذلي (رضي الله عنه) ، الذي يحتفل به فى حميثرا بالبحر الأحمر ، والسيد البدوى (رضي الله عنه) بطنطا ، والسيد عبد الله أبو العباس الدندراوى (رضى الله عنه) ، بالبساتين بالقاهرة ، والعارف بالله عبد الرحيم القنائى (رضى الله عنه) بقنا ، وغيرهم كثيرون .

وفى هذه المولديات تقام السرادقات التى يجتمع فيها نخبة من العلماء ، والخطباء ، والأدباء ، وبعض رؤساء الطرق الصوفية المختلفة من كل صوب وحدب ، يتلون القرآن الكريم ، ويلقون أحاديثهم الدينية ، وينشد الشعراء قصائدهم الدينية ، ويقيم المريدون أذكارهم ، ويرددون أورادهم ، كما تذبح الذبائح إكراما لصاحب الذكرى ، وإطعاما للضيوف.

وهذه الاحتفالات والمولديات ليست من التقاليد الإسلامية الأصيلة فى شيء ، لذا فإن المسلمين لم يتخذوا من مولد الرسول (ﷺ) مُبْتَدَأ للتاريخ الإسلامي كما فعلت المسيحية بالنسبة لمولد السيد المسيح (عليه السلام) ، وأنما اتخذوه من هجرته (ﷺ) وهى – في الحقيقة – ميلاد الجماعة الإسلامية فى المدينة . ولكن إحتكاك المسلمين بغيرهم من الأمم أصحاب الديانات القديمة ، جعلهم يتأثرون ببعض عاداتهم ، ومنها احتفالهم بتاريخ المولد ، ولسنا نعرف متى بدأ الإحتفال بموالد الأشخاص فى العالم الإسلامي،ولكننا نعتقد أن ذلك بدأ فى منتصف القرن الرابع الهجري [1].

وقد أنشد الأبنودى فى بعض هذه المحافل الدينية التى كانت تقام فى قنا إحتفالاً بذكرى ميلاد قطبها الكبير العارف بالله (سيدى عبد الرحيم القنائى) سبط الرسول (ﷺ) ، وقد خص الشاعر هذا العالم الجليل ببعض قصائده ، وكان فى هذه القصائد يقدم لها بمقدمات نبوية يتحدث فيها عن عشقه للنبى (ﷺ) ، وشوقه للروضة الشريفة ، وذكر عظيم شمائله، وأخلاقه (ﷺ) ، ويطنب في ذلك حتى نظن أنه الغرض الأساسى للقصيدة ، ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن فضائل المحتفى به ، وسيرته العطرة فى الناس . ومن أمثلة ذلك قصيدته الدالية، وهى قصيدة جيدة فريدة فى نوعها يقول فيها إنه لم يهيج شوقه غناء طائر الرياض ، وأنه لم يصبو إلى غانية حوراء غيداء ، ولم يعشق ليلى كغيره من الشعراء ، ولكن الذي هيج شوقه صوت الحادى الذى حدا بالسحر ميمماً أقواماً من أمهم ناله الخير والسعد،قوم امتلاء قلبه بحبهم منذ نعومة أظافره،واستغنى بهذا الحب عن كل شئ من حوله حتى الأهل والولد:

ما شاقنى شدوُ طيرفي الرياض شدا	ولا أغنَّ يجيد اللحن والغردا
ولا صبوتُ ولن أصبو لغانية	حوراء غيداء يرمى لحظها الأسدا
ولا تعشقت ليلى مثلما فتى	ولا بكت مقلتى أطلالها أبدا

---

[1] - راجع دكتور محمد مكى : المدائح النبوية ص ٩٦ وما بعدها .

لكن سبى مهجتى حادٍ حدا سحرا ... ميمما سادة مَن أمهم سعدا
إنى لصبٌ صَبَتْ نفسى لرؤيتهم ... منذ الصبا فزهدتُ الأهل والولدا

ثم أخذ الشاعر يصف كيف أضرم حادى الظعن فى كبده نار شوقه للحبيب المصطفى (ﷺ) ، وكيف حال ضعف المطى عن بلوغ مأربه . فناشد الحادى إن جاز العقيق بالمدينة المنورة أن يعج بالتحية لأهل الحى ، وأن يتلطف معهم فى الحديث ، ثم يبسط يده للحبيب (ﷺ) ويبلغه سلامه ، وينعت له حاله ، ويصف له نحوله وشجوه ، لعله ينال سحابة من عطفه يسعد بها طول العمر ، فيقول :

ناشدتك الله إن جزت العقيق ضحا ... فعُجْ ، وحَىِّ غُرَيْبَ الحَىِّ مُنْشِدا
واخْشَعْ لهم وتلطَّف فى الحديثِ وَقِفْ ... واقرأ سلامى وابْسُطْ للحبيب يَدَا
وانْعَتْ نُحولى وشَجْوى !! عَلَّ بَارقةً ... تلوحُ مِن عطفِهِم أحظى بها أمدا
فقل قتيلُ الهوى بالجزع مطَّرِحٌ ... يئنُّ أنَّ رضيع المهْدِ إذ فقدا

- ثم يسترسل الشاعر فى وصف حاله فيقول :

والضر قد مسه والبؤس حالفه ... ودمعُ عينيه من فرط الجوى جمدا
وعوده قد خوى حتى غدا شبحا ... عديمَ فئٍ وإن فوق التلال بدا
قد ضَلَّ عُوَّاده مأواه فانقطعوا ... فظلَّ لا أهْلَ لا عُوَّادَ لا أحدا
فهل لكم سادتى أن تحملوه إلى ... وَادٍ به صفوةُ الخلاَّقِ قد وجدا

وفى هذه الأبيات يبالغ الشاعر فى وصف حاله ، ونحوله مبالغة كبيرة ، ويذكرنا فى البيت الثانى ببيت المتنبى فى وصف حاله حين قال :

كَفى بجِسْمِى نُحُولا أنَّنِى رَجُلٌ ... لَوْلاَ مُخَاطبَتِى إيَّاكَ لمْ ترنِى

ثم راح يمدح المصطفى (ﷺ) ، ويكرر نفس المعانى التى ساقها فى قصائد مديحه النبوية السالفة الذكر ، من أمر الحقيقة المحمدية ؛ فيقول : إنه أصل الوجود ، ومنشأ الأكوان ، والنور الذى خلقه الله ، ثم خلق- بعده – منه كل شيء،كما جاء في الحديث الضعيف عن جابر الأنصارى :

محمدٌ قبضةُ النور التى انْتُخِبَتْ ... من نور مولاه للأكوان خير هُدَى
أصلُ الورى منشأ الأكوان علَّتُها ... كما روى جابر – أنعم به سندا
فالكل من نوره امتدُّ الوجود فما ... من كائن فى الورى إلا استقى المددا
لولاه لاستترت تلك العوالم فى ... ستر الخفا وانطوت فى طيه أبدا

والرســل مــن آدم لابــن البتــول وإن … جــاد الزمــان بـهــم قبـلاً ومـَـدَّ يَــدا
كـلٌّ أتـى رافِــعـا أعــلام بـعـثـتـه … فـهـم جنـودِ أميــر بَعدَهُــم وَرَدا
وإن أتـوا قـبـله بـالآى معـــجـزةً … فـآيـة الفـيـضُ عَــمَّ السَّـهلَ والنجدَا
أكــرم بــه ســيـِّـدًا طـابـت أرومـتـه … كـمـا زكـا فـرعــه نــدًا ، وطــاب نــدى

ثم يعبر الشاعر عن عشقه للرسول (ﷺ) ، وكيف تملك حبه قلبه حتى أنه لا يجد سعادة ، ولا هناء ، إلا فى مدحه (ﷺ) ، والثناء عليه ، لكنه يرى أن مدحه للرسول (ﷺ) مدح العاجز وثناء المقل أمام ثناء الله سبحانه وتعالى على نبيه (ﷺ) :

لـقد تـمَـلَّكَ قـلــبى حُــبُّـهُ فــحَلا … لــى مـدحُــهُ غـيـر أنَ العـجـزَ بى قعـدا
وكـيـف أثْنِى وَقـدْ أثنى الكريمُ عَلى … طــه بـمـا لـيَسْ يُـحـصَى فـضْلـهُ عَـدَدَا

ثم يطنب الشاعر فى مديحه ، معترفاً بكثرة ذنوبه ، نادماً على ما اقترف منها ، راغباً فى المغفرة والشفاعة ، وهو يجتر نفس المعانى السابقة ؛ ولكنه يضفى عليها مسحة جمالية من إبتكاره . وله فى هذا تعبير رائع إذ يقول :

إنّنى امتطيتُ الهَوىَ فى مَسْلكِى فهوى .. بــى هــوَةً طوقـتـنِى نكْبَــة وَرَدَى

ويعرب بعد ذلك عن حبه ، وأسباب مدحه للمصطفى (ﷺ) ببيتين من أروع أبياته ، فيقول :

فــمـدْحُـهُ بلـسَمٌ للنفس من وَصَبِ … وُجـنــةَ القلْـبِ إنْ عَــادٍ عَلـيْــه عَـدَا
وَحُبُّ طـهَ كـفــيلٌ بالسَّعَــادةِ فى الدَّ … اريــن فـــانْهَلْ ورَوِّ الــرُوحَ والجَسَـدَا

ثم ينتقل بعد ذلك من الحديث عن الذات النبوية للحديث عن فضائل المحتفى به ومناقبه ؛ فيرى أن العارف بالله عبد الرحيم القنائى على طريق " عية المحمدية ، والمحبة النبوية حتى أشرب صفوها ، فهو الندى الراحتين ، وإليه ينسب الكرم ، والجود ، وهو سلسل بيت الأماجد الذين أوجب المولى محبتهم ، فهو سبط الرسول (ﷺ) به أرتدت قنا ثوب السعادة والفخر :

ولـيس فـى القــوم من ذاقـوا محـبتـه … وأشــربوا صفــوها حـتى غـدوا سعـدا
إلأ إمـــــامٌ كـــريم المحتـــدين لـه … فــى صالحى القـوم ذكـرٌ فـى العـلا خلـدا

عبــد الـرحيم النـَّدىّ الراحتــين ومَـن … إليــه أصلُ السخـا والجــود مـدَّ يـدا
سليل مجــد وغــصنٌ طاب عنصــره … ومـــوردُ الفــضل مَجْنى حكـمـة ونـدى
مِـن ســادةٍ أوجبَ المـولى مـحـبتـهـم … فـمن سُـقِى الحـب أضحى عيشهُ رغـدا
سِبطُ الـرسول ومـن كـان الــرسول لـه … جَـدًا فـفى جـاهه حـسن الرجـا عُـقِــدا
هــذى قــنـا ترتـدى ثـوبَ الـسعــود بـه … والطيــرُ بـاللحن فـى روض الفـخـار شَـدا

ثم يسترسل الشاعر فى وصف فضائل المحتفى به ، وذكر خصائله النبوية النبيلة ؛ فإنه كان في حياته ملجأ البائس ، والفقير، وبحراً خضمًا فى سماحته ، وغرة فى جبين الدهر ؛ وأن المولى ألبسه ثوب العناية منذ أن شب طفلاً ، وأعطاه الكثير من الكرامات التى لم تحص عددا ، ثم يؤكد الشاعر قوله فى بيتين رانعين فيقول :

فسل عن الغوث مَنْ جار الزمان بهم ... وصاح فيهم فأمسى صَفوهم نكدا
لكنهم حين أمّوا بابَ نصرته ... أمّوا مغيثًا لديه الدهر قد سجدا

ثم يأخذنا الشاعر إلى لوحة تعبيرية جميلة ، يرسم فيها صورة بديعية لجموع العاشقين لهذا السبط النبوى ، وهم يحتشدون حوله ، يرنون إليه ، ويناجون الله عز وجل الواحد الأحد ، وكأنهم هالة من النجوم ، وهذا القطب العظيم كوكبها :

هذى الجموع وعاها الشوق فاحتشدت ... حول الضريح تناجى الواحد الأحدا
كأنهم هالة والقطبُ كوكبُها ... والكلُّ يرنو له يستمنح المددا

أو كأنهم إطار جميل للوحة بديعة ، وهذا العالم الجليل هو الصورة الجميلة الشامخة داخل هذا الإطار :

أو هم إطار جميل وهو صورته ... فيها الجمال تراءى والفخار بدا
هذا يصيح وذا يدعو وذا دَنِفٌ ... وذاك يُرسل آهات الجَوَى كمدا
والكلُّ أيقن أنَّ اللهَ يمنحه ... فى هذه الساحة الفيحاء خير جَدى
عساه يَقْبَل منهم صِدْقَ توبتهم ... ويفتح الله للعاصين باب هُدى

وقد أجاد الشاعر فى هذه الأبيات فى تعبيره عن معانيه وبرع فى عرض أفكاره . وأحسن التقسيم فى عباراته ، فضلاً عن أنه كشف عن العلاقة التى تكون بين الناس وبين أولياء الله الصالحين ، وأبانها وأجلاها ؛ فالناس يأمون أضرحتهم ليقينهم أن هذه الأماكن الفيحاء ساحات طاهرة تتنزل فيها الرحمات ، وفيها تستجاب الدعوات ، وفيها يقبل الله صدق توبتهم ، وفيها تفتح للعاصين أبواب الهداية ، ببركة أصحابها أولياء الله الصالحين . وبذلك يفند الشاعر ويبطل دعوى الذين يقولون أن الناس يقصدون هذه الأضرحة لعبادة أصحابها ، أو أنهم يجعلونهم شركاء مع الله . ثم يعرب الشاعر – كعادته فى أواخر أبيات مديحه – عن عجزه ، وتقصيره عن مدح سؤدد المحتفى به ، ويؤكد أنه نزيل حماه ، وقد جاء هذا الحمى بكليته وجلاً يشكو ما ألم بقلبه ، فجعله متقدا ، يطلب العون ، والملاذ إذا عز الملاذ غدا ، وجئ به فى قيود المذنب الأثم ، وهو يوقن أنه لن يخيب رجاءه ، أو يضيع هذا الرجاء سُدى ؛ فليس للشاعر فى الورى من يستجير به بعد رسول الله (ﷺ) ، الشفيع المشفع سوى هذا القطب العظيم . ثم يختتم الشاعر قصيدته بالصلاة والسلام على رسول الله (ﷺ) ويحرص وهو يتركنا عند البيت الأخير على أن يذكرنا بصدر البيت الأول فى غير تكلف أو ملل :

صلى عليه إله العرش ما بزغتْ ... شمسٌ وما النجم فى أفق السماء بدا

أو أم عـافٍ ـ قنـا ـ أو قـال نـاظمـهـا (مـا شـاقني شدوُ طيـر فـى الريـاض شـدا)

وبعد ..، فإن القارئ لهذه القصيدة وغيرها من القصائد التى مدح بها الأبنودى العارف بالله عبد الرحيم القنائى سبط النبى (ﷺ) يحس بصدق عاطفة الشاعر ، وبنبض إحساسه ، ورهافة شعوره ؛ فالممدوح من أهل بيت النبى (ﷺ) . والشاعر عاشق للحبيب المصطفى ، وآل بيته ، لذا خرج كلامه من أعماق قلبه ، فحل فى أعماق قلوبنا ؛ وقد قال النقاد : كل ما صدر من القلب حل فى القلب .

***

ثالثا ـ الرثائيات

الرثاء هو فن الموت ، ولغة الحزن ، ومجال اليأس ، ومعرض الوفاء [1] . وهو لون من ألوان المديح والثناء على الميت ، أو امتداد له بعد حياته ، فالشاعر فى الرثاء يذكر الصفات والنعوت التى كان يمدح بها الميت فى حياته ، ويشير إلى أن تلك الصفات قد انعدمت بموته ، لذلك يقول قدامة بن جعفر : " إنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أنه يذكر فى اللفظ ما يدل على أنه هالك " . [2]

وقد ألمت بالأبنودى أحداث أمتحن بها فى أعز أحبابه ، وأخلص أصدقائه ؛ فقال فى رثائه شعرا نهوضاً بما يجب عليه من الوفاء له ، والحزن عليه . وهو العارف بالله فضيلة الشيخ أحمد محمد رضوان والذى ينتهى نسبه إلى سيدنا الحسن بن الإمام على (كرم الله وجهه) .

ولا نعتقد أنه رثا أحداً غيره . وكانت مراثيه لهذا العالم العابد تنم عن صدق العاطفة وحرارة وجدانه ، ولوعة الفراق ، وحرقته ، وبعدها عن الزيف والتظاهر ، ويبدو أن الشاعر قال العديد من القصائد فى رثائه التى كان يلقيها فى الإحتفال السنوى الذى يقام لهذا العالم الجليل فى قريته البغدادى مركز الأقصر محافظة قنا . ولكن ما بين أيدينا فى ديوانه من هذه الرثائيات قصيدتان فقط ، إحداهما قالها عقب وفاة المرثى ، فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر فى ١٢ يونيو سنة ١٩٦٧ م ، والثانية قالها فى إحدى هذه الحوليات فى عهد الرئيس أنور السادات كما يبدو من مضمون هاتين المرثيتين على ما سنذكر بعد ، حيث ذكر اسم الزعيمين فى نهاية كل منهما بالدعاء لهما ، وكانت المرثية الأولى ميمية ، ويبلغ عدد أبياتها ٣٩ بيتاً ، وهى من بحر البسيط ومطلعها :

مـا للزمـان وللأحبـاب يفجعنـا فـيهم ويسقى الـورى مِـن صـابهم جاما
يـد المنـون قـد امتـدت وقـد خطفـت مـن بيننـا مصلحًـا بالحـق قوّامـا

وقد ركز الشاعر فى هذه المرثية على الجوانب الدينية ، والأخلاق المحمدية فى حياة هذا العالم الجليل ، فذكر أنه كان قوّاماً ، صوّاماً ، تقياً ، ورعًا ، زاهداً ، سمحاً ، كريماً ، ذا

---

[1] - أ. د. أحمد الشايب : الأسلوب ، ص ٨٥، ط٨ ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٦م .
[2] - قدامه بن جعفر : نقد الشعر ، ص ١١٨.

مروءة حليماً ، إلى أخر هذه الصفات التى ملأت الأسماع فى كل مكان :

عـزُّوا المساجد فى مَنْ كان يَعْمُـرها ... ليـلاً إذا هجـعت عـينُ الـذي نامـا
عزُّوا الهُدَى والتُّقى عزُّوا السَّماح فقد ... مَـاتَ الـذي كـان للأسـحار قـوَّامـا
عزُّوا المكارمَ عـزُّوا الزهد فيـه فـقد ... مـات الـذي كـان طـول الـدَّهر صوَّامـا
عـزُّوا المروءةَ عـزُّوا كلَ ذي شـرفٍ ... مـات الـذي كـان للأضيـافِ مطعامـا
عـزُّوا الحيـاءَ فقـد مـات الحييُّ ومن ... قـد كـان يَلقـى ذوى الحاجـات بسَّاما
يـا صـاح مـا مـاتَ مَـنْ هَذِى مآثرهُ ... مِـنْ بَعْـدِهِ تملأُ الأسمـاع أنغـامـا

ثم يختتم الشاعر مرثيته كما تختتم الخطب المنبرية بابتهالاته إلى الله سبحانه وتعالى ، ودعوته بأن يحفظ الله أبناء هذا العالم الجليل ، وأن يجعلهم خلفًا لخير سلف ، وأن يرضى عنهم ، وعن الأمة الأسلامية ، وأن يجزى الأحبة ، ومن يقوم على نصرة الإسلام خيرا ولا ينسى أن يدعو لولى الأمر الرئيس جمال عبد الناصر الذى يقود الأمة فى سعة من الحياة . ثم ينهى دعوته بالصلاة على رسول الله (ﷺ) ، وآله الأطهار ، والتابعين إلى أن تقوم الساعة :

واحـفظ إلهى بنيـه وارْضَـهُمْ خلفًـا ... فكلُّـهُمْ نجـمُ هَـدْىٍ سـاد أقوامـا
واغـفِر لنـا ولهم والقـائمـين على ... ديـن الحنيـفـةِ إيمـانًا وإسـلامـا
وأجْـزِ الأحـبة مـا يُجْزَى الكرامُ بـه ... وانْـشُرْ رضـالك عليـهم ربِّ إكرامـا
واحْفـظ جمـالا يقـود الغربَ فـى سعةٍ ... من الحيـاةِ ونصـر يرفـع الهـامـا
وصـل ربـى علـى المختـار مـا طلعت ... شمـوسُ عفـوكَ تغشـى الكون إنعامـا
والآل والـصَّحبِ ثـم التابعـين إلـى ... أن يحـشر النَّـاسُ وحـدانـا وأقـوامـا

أما مرثيته الثانية وتبلغ ١١٠ بيتاً ، وهى من مجزوء الرمل ، أنشدها فى إحدى الإحتفالات السنوية بذكرى وفاته ، وقد اختلط فيها الرثاء بالمدح ، بدأها بإلقاء التحية والسلام على من حضر هذا الإحتفال السنوى لانتقال هذا العالم الجليل فقال :

يـا أحَـبَـابى سَـلامٌ ... عـاطِرٌ مَـرَّ الزَّمـان
وتحـايـا طيِّبـاتٌ ... عـابقـاتٌ كـلَ آن

قـد شـرفنـا وشـرفـتم ... بـالتـلاقى والتـدانى
فـي ريـاض مـزهـرات ... زهـر بـمـن وأمـان
سـيـمـا روض تـوارى ... فـيـه من للمـجد بانى
أحـمـد الرضـوان هـادى الـ ... قـوم من قـاص ودانـى

ثم أخذ الشاعر يعدد مناقب المرثى ، وفضائله فى أسلوب بسيط ، وعبارات قصيرة:

فـهـو فـى الآفـاق نـور شـع فـي أسـمـى مكان
وهـو للحـيـران نجـم يحتـذيه كـل عـانى
وهـو قـطب حـوله الأحـبـاب كـالـزهر الحـسان
كـم شـربنا وارتـشفنا الـفـضل من صفـو المعـاني

ويستمر الأبنودى في تعداد هذه المناقب ، والثناء على المرثى ، فيتحول بقصيدته فى الرثاء إلى قصيدة فى المديح ؛ حيث يحشد الكثير من الأوصاف الحميدة للمرثى . ثم يخلص من هذا الرثاء ، أو المديح للمرثى إلى مديح أبنائه جميعاً فى ستين بيتاً مبتدأ بأبنه الأكبر ، (محمد أحمد رضوان) ، فيرى الشاعر أنه فرع أصيل لم يذق طعم المعاصى ، شرب التقوى صَبياً ، عفيف اللسان ، راجح العقل ، كريماً ... ألخ هذه الصفات التى نعت بها الشعراء السابقون ممدوحيهم . وتبدو هذه المرثية وكأنها مدحة منفصلة قائمة بذاتها ، ويختمها باعرابه عن عجزة الشديد عن وصف ذات الممدوح ، داعياً له بقرة العين ، مرسلاً له تحياته وتهانيه :

يـا سليل المجـد عـذرًا لسـتُ قـسـا فـى زمـانى
لـك فـى قـلبـى مكـانٌ حـب هـذا أسـمى مكـان
أنـا إن صُـغتُ مـديحى مـن حبيبـات الجـمـان
عـاجـزٌ عـن وصـف ذاتٍ قـد تسامت عـن بـيـانى
فـلـكم منـا الـتـحـايا ولكـم منـا التـهـانى

ثم ينتقل إلى مديح أخيه صالح أحمد رضوان فى ستة عشر بيتاً ، مبتدناً بقوله :

وأحَيِّـى باحتـرام (صالحـا) فخـيـر الزمـان
فـهـو للعليـا مثـال يحتـذيه السـالكان
قـد سقـاه الله كـأس الـعـز مِن أصـفـى بيـان
شـبَّ ذا حـزم حليـمًا وأبِيًـا فـى حنـان

ويستمر الشاعر في وصف مكارمه ، ثم يبدى عذره عن ضعف بيانه فى المدح فيقول :

يـا أخـا الإصـلاح عـذرا إن بـدا ضـعـف بـيـانى
إنـه جـهـد المقـل وهـو نـبـعٌ مـن جـنـانى
لـك مـن وسـمـك حـظ صـالـحٌ فـى كـل شـان

ثم ينتقل الشاعر إلى مدح أخيهما زين العابدين أحمد رضوان معددا فضائله قائلاً :

ولـزيـن العـابدين أنـشـر البُـرْدَ اليـمـانى

وأحييك الخيط مدحًا وثناء من جناني
إنه نجل كريمٌ عزٌ في أى مكان
سيدٌ من سيدٍ من سيد عبر الزمان

وأخذ الشاعر يكرر نفس المعانى السالفة الذكر التى مدح بها أخويه السابقين ، وإن اختلف فى أسلوب التعبير عنها ، ويختم هذه الأبيات – أيضاً – بنفس البيت الذى أنهى به أبيات مديح اخويه السابقين :

ولكم منّا التحايا ولكم منا التهانى

ثم ينتقل إلى مدح أخيهم الأصغر عبد الله أحمد رضوان فى ستة أبيات، بدأها بقوله:

وإذا عمّت خطوبٌ وبدا نابُ الزّمان
فأتِ (عبدَالله) تُفتّح لك أبواب الأمان

وختمها بنفس البيت الذى ختم به أبيات مديح أخوته ، ثم ينتقل الشاعر بعد أن مدح أبناء القطب الكبير ، والعالم الجليل إلى إلقاء التحية على الحاضرين الذين وفدوا حصن الأمان وأتوا من كل فج ، ولاءً ، ووفاءاً ، وتجديداً لعهدهم للمرثى فيقول :

وأحيى الحاضرين بسلام من جنانى
إنهم غرٌ كِرامٌ صفوة البدر الحسان
تّخِذوا الحب مطايا وأتوا حصن الأمان
وفدوا من كل فج شأنهم كل اوان

وفى نهاية أبيات هذه المرثية يرفع كعادته إبتهالاته إلى الله أن يغفر الذنوب ، ويكشف الدر ، ولاينسى أيضاً أن يدعو لولى الأمر الرئيس أنور السادات رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت ، أن ينصره الله نصراً فيه تحقيق الأمانى ، وأن يمنح الإسلام تاج عز وامتنان ، وأن يجمع العرب ، ويوحد كلمتهم ، ثم يصلى على النبى محمد (ﷺ) ، وأهداء التحيات ، والتهانى له قائلاً :

وعلى الهادى صلاةٌ وسلامٌ يَهْمِيَ الحسان
ما بدا فى الأفق نجمٌ وأستنارَ المطلعان
ولكم منّا التّحايا ولكمْ منّا التهانى

وبعد ... فإن هذه المرثية سيطر عليها الأسلوب الخطابى ، ولم يستطع الأبنودى أن يفصل بين كونه شاعراً ، وكونه خطيباً بارعاً ، فامتزج فيها الشاعر والخطيب معا ، فضلا عن أنه اختلط فيها أيضاً الرثاء بالمديح ، حتى أننا يمكن أن نعدها قصائد مديح للسيد أحمد رضوان . وأبنائه الأربعة ، والحاضرين الوافدين إلى ساحته (رضى الله عنه وأرضاه) ، وليست قصيدة رثاء له ، وعليه يمكن أن تقسم هذه المرثية إلى ست قصائد ، كل قصيدة منفصلة عن الأخرى لها مقومات القصيدة الكاملة من مطلع ، ومقدمة ، وتنتهى بخاتمة ، والخاتمة دائماً واحدة ومتكررة فى جميع القصائد .

***

رابعا ـ الشعر التعليمي

لا يهدف الشعر التعليمي إلى إمتاع القارئ أو السامع ، ولا يخاطب الخيال ليوقظ فيه مناظر ساحرة خلابة ، ولا يتجه إلى الحس ليثير فيه مشاعر حلوة محببة إلى القلب ، ولا يعبر عن تجربة صادقة ؛ بل يهدف إلى تعليمنا وتثقيفنا ، وله رسالة تربوية يؤدى إليها وما يحتوى عليه من ومضات غنائية إن وُجدت يعتبر أمراً ثانوياً بجانب مهمته الأساسية ، وقد يستخدم القصص ، والأوصاف ، والأحاسيس الغنائية ليهدهد من صعوبة المعرفة ، ويلطف من جفاف النصيحة ، ويسقى القارئ كوباً من الجمال . ومادة الشعر التعليمى متنوعة بتنوع المعرفة ذاتها، فتشمل العلم ، والأخلاق ، والفنون ، وإن شئت الحقيقة ،والخير ، والجمال[1].

ويرى أستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكى أن نشأة هذا الشعر فى الأدب العربى كانت فى العصر الأموي [2] ، ويجد تجديداً فى شكل القصيدة ومضمونها ، وأخذ هذا اللون من الشعر شكل القصيدة ، أو الرجز ، أو المزدوج ، ونجهل بواعثه ودواعيه ، وخطواته الأولى، وترك هذا المجال واسعاً لضروب من الظن والتخمين ، فقد رآه بعضهم محاكاة للشعر اليونانى المنقول بشكل مباشر من أواخر العصور القديمة ، ويشى بهذا فيما يرون أنه بدأ أولاً فى مجال الطب ، والكيمياء، والفلك ، وكان العرب فيها ، فى أيامهم الأولى على الأقل عالة على اليونان ، على حين يشير البيرونى فى كتابه " تحقيق ماللهند من مقولة " عند منظومة الفلك ، أنها محاكاة لكتب هندية فى الزيج ، نظمت على نمط الشعر المعروف باسم شلوك sloka ، وأراه من الضروريات التى يمكن أن تستجيب لها النفس ، وأن يهتدى بها العقل على غير سابقة فى أدب كان الشعر فنه الأول ، فلا غرو أن يتجاوز به الغنائية التعبير عن الذات إلى إستخدامه أداةً للتثقيف والتعليم ، فى مجتمع تغلب عليه الأمية ، وتقل فيه الكتابة ، ويعتمد على الحفظ دون القراءة ، وعلى الرواية الشفوية قبل التقييد ، ذلك أن تأثير الجرس يجعل مثل هذا النوع من الشعر يلصق بالذاكرة ، ويصبح شكلاً ملائماً للتعليم . وأوزانه تساعد على الثبات والبقاء وسهولة الاسترداد [3] .

وقد انتشر الشعر التعليمى إنتشاراً كبيراً فى العصر العباسى وكان من أوائل من شق أفقه فى هذا العصر الشاعر أبان بن عبد الحميد الاحقى (ت ٢٠٠ هـ) معاصر أبى نواس؛ فقد نظم فيه تاريخاً وفقهاً ، وقصصاً كثيرة [4] ؛ فنظم فى التاريخ سيرة ازدشير وانوشروان ، وفى الفقه نظم الأحكام المتعلقة ببابى الصوم والزكاة ، ووضع قصيدة فى مبدأ

---

[1] - انظر الدكتور الطاهر أحمد مكى : الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه ، ص ٤٦٥، ط١، دار المعارف ، سنة ١٩٨١م .

[2] - ويرى الدكتور شوقي ضيف أن الشعر التعليمى فن أستحدثه العباسيون ، ولم تكن له أى أصول قديمة ، والذى دفع إليه رقى الحياة العقلية فى العصر العباسى (راجع العصر العباسى الأول ص١٩٠ط٦ دار المعارف).

[3] - راجع الطاهر أحمد مكى : السابق ، ص٤٦٩، وما بعدها .

[4] - راجع ترجمة أبان الاحقى فى كتاب الأوراق للصولى (قسم اخبار الشعراء)من ١:٥٢ طبعة مطبعة الصاوى ، والحيوان للجاحظ ج٤/٤٧؛ومابعدها .

الخلق ، وضمنها شيئاً من المنطق ، وأهم من هذا كله أنه نظم فى القصص كتاب "كليلة ودمنة " فى أربعة عشر ألف بيت من الشعر [١] وأتمه في ثلاثة أشهر[٢].

ثم أخذ العلماء يستخدمونه على نطاق واسع فشمل علوم الفقه واللغة ، والسياسة ، والتصوف ، والتاريخ ، والنحو ، والبلاغة ، والخط ، والتجويد ، وغيرها حتى نظم فى الألفاظ .. ألخ.

وفى عصرنا الحديث رأينا محمد عثمان جلال المصرى المتوفى عام ١٨٩٨م ، يترجم خرافات لافونتين شعراً بتصرف . وأسماها " العيون اليواقظ فى الحكم والامثال والمواعظ " ونلتقى فيها بأشكال الشعر التعليمى الأول ؛ إذ جاء بعضها رجزا وجاء البعض مزدوجاً ، ثم جاء أمير الشعراء احمد شوقى فبلغ بهذا الفن غايته فى حكاياته على لسان الحيوان [٣].

أسهم الأبنودي في هذا الفن التعليمى التثقيفى بشكل جيد من خلال منظومته النحوية التى أسماها " النفحات الوهابية فى علم العربية " ، وهى أرجوزة فى نحو ٤١٥ بيتاً ، أستهلها بإهداء لبنى عصره قال فيه :

بنِى عَصْرِى لكُمْ كَلِمَاتُ تُهْدَى ... تسُرُّ النَّاظرِينَ مدى السَّلَاقِ
عَروبٌ بالفرائدِ واليتَامَى ... تُحَلَّى الجِيدُ مِنهَا والتراقِى
تبَرْقَعَ وَجْهُهَا عَذْرَاءُ لكِنْ ... تأيمها أبحثُ بلاَ صداق
فَهَلْ مِنْ كَاشِفِ عنها لِثَامًا ... لِيَكْمُلَ حُسْنُها لأخِى اشتياق

وقد نظمها الأبنودي على غرار ألفية إبن مالك فى النحو ، وبدأها بذكر أسمه . وحمده لله سبحانه وتعالى ، وتوحيده ، والصلاة على حبيبه (ﷺ) ، ثم أفصح عن عمله فى الأرجوزة وتسميته لها والهدف منها ، فقال :

وهذه أرجوزةٌ نظمتُهَا ... فى النحو بالنفحاتِ قد سميتُها
لِقاصِرٍ في الفن مِنْ أمْثالِى ... لا للممارسينَ من أبْطالِ
تطَفُّلاً على ذوى الموائدِ ... عَلى بها إلى الرَّشادِ أهْتدِى
فما أتَى مِنْهَا صحيحًا انْتَسَبْ ... لأهْلِهِ ذوى العُلوم والرُّتَبْ
والله أرْجُو النفع للطُّلَّابِ ... والعفوَ والبَعْثَ مع الأحبَابِ

---

١ - راجع شوقي ضيف : العصر العباسى الأول ص١٩٠ومابعدها وفى طبقات ابن المعتز ص٢٤١(فى نحو خمسة آلاف بيت).

٢ - الطاهر امجد مكي : السابق ص٤٧٠، وفى الشعر العباسى (الرؤية والفن) يقول دكتور عز الدين إسماعيل : وفرغ منه فى أربعة اشهر ، راجع ص٣٨٤.

٣ - راجع الطاهر احمد مكى : السابق ص٤٧١.

وتبرز من الأبيات ظاهرة التواضع الشديد فى العلم التى أتسم بها الأبنودى كما مر بنا ، وتصغيره من شأن نفسه فيه ؛ رغم أنه من أهله ، وهذه سمة العلماء الحقيقيين ، ثم تحدث عن الكلام ، وما يتألف منه في ثمانية أبيات قال فيها :

كلامُهمْ لفظٌ مُفِيدٌ قدْ قصدْ   بالوضع نحو قمْ وسعدٌ مُجتهدْ
أقسامهُ ثلاثة يَا مَنْ سأل   اسم وفعلٌ ثمَّ حرفٌ يَا أجَلْ

ثم تحدث عن الإعراب والبناء ، والمعرب ، والمبنى بالحركات ، والحروف والأفعال من ماض ، وأمر ، ومضارع ، ونصبها ، وجرها ، والنكرة ، والمعرفة ، والضمير ، والعلم ، واسم الإشارة ، والإسم الموصول ، والمعرف بأل ، والمبتدأ والخبر ، .. حتى شمل علم النحو جميعاً ، ولم يقم الأبنودى بشرح أرجوزته ، ولم يشرحها أحد غيره كما فعل السابقون مع ألفية ابن مالك التى قام بشرحها ابن مالك نفسه ، كما شرحها ولده بدر الدين محمد شرحاً منقحاً ، اشتهر "بشرح ابن الناظم " ، كما شرحها غيرهما كثيرون من العلماء ، ووضعوا عليها الحواشى ، مماندر أن يظفر بمثله كتاب . بل إن عمر بن الوردى اختصرها فى مائة وخمسين بيتاً ، ولاتزال إلى اليوم أساس دراسة النحو والصرف [1] .

وأرجوزة الأبنودى من الناحية الفنية ليست لها أية قيمة فنية سوى التعليم والتثقيف.وإن كانت تنم على أستاذيته فى علم النحو،وقدرته على النظم . وفيها تبسيط لهذا العلم الجاف صاغها الأبنودى فى أسلوب شعرى سهل،وهى لا تخلو من ومضات غنائية ليهدهد من صعوبة هذا العلم ويلطف من جفافه،وهى تصلح لأن تدرس للطلبة فى المدارس والجامعات بعد أن يقوم متخصص بشرحها ، وقد قام الأستاذ محمد على بدوى بتقريظها على غرار ما فعل السابقون مع مثل هذا العمل فقال :

إليكم يا بَنِى الأوطان بكرًا   مُهذبة علتْ فى الكون ذِكْرا
تجلتْ إذْ تتيهُ لنا دَلالاً   بحُسْنٍ قدْ سبى الألبابَ طرًا
تحلتْ بالجمَال كما تراها   أضاء اللؤلؤُ المكنونُ نحْرًا
ألا فانْشقْ عبيرَ شَذا أقاح   فذِى نفحاتُ ذى الإكْرام تتْرى
تلوحُ بشائرُ الإخلاص منها   على طلأبهَا صُبْحًا وعصْرًا
فهل من راغبٍ يدنو لديْهَا   ويُمعِنْ نظرةً تكفيه مَهْرًا
فدونكِها إذا ما شِئتَ تحظى   بغانيةٍ لها فى الكون ذكْرَى
بها جادت قريحةُ خير حِبٍّ   همامٍ فى الهُدَى لمْ يألُ سيْرًا
هديَّةَ ماجدٍ شهم تَقىّ   فكم أهدَى لنا نظمًا ونثرًا
هو "المحمودُ" قولاً ثم فعْلاً   جَزَاهُ الله خيْرًا ثم خيْرًا
وباركْ يا إلهى كُلَّ وقتٍ   عليْه وكُنْ له عونًا وذخْرًا
وللطُلابِ فافتحْ عَيْنَ لُبٍّ   وأسْبغْ ما حييتُ علىَّ سِتْرًا

[1] - راجع احمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص٢١٢ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣.

لهَـا التَّـاريخُ وَافَـى حِـينَ خَـتم عَـرائسُ كَـمْ سِـمْتَ فِـى الحَـىِّ قَـدرا

١٣٤١، ٦٠، ٥٠٠، ٩٠، ٤٩، ٣٠٥، ١٣٤٥هـ

وقد ألحق محقق ديوان الأبنودي وجامع أشعاره هذه الأرجوزة بأشعاره المجموعة لإتمام الفائدة ، علَّ باحثًا متخصصًا يقوم بشرحها كما فعل السابقون مع ألفية ابن مالك وغيرها ؛ ليتحقق تمام النفع بها .

٣ - الظواهر الأسلوبية فى شعر الأبنودي

زاد الاهتمام في العصر الحديث بالدراسات الأسلوبية زيادة ملحوظة. واهتم نقاد الغرب بهذا الإتجاه الأسلوبى ، وتأثر بعض النقاد الشرقيين بهم ، فترجموا أقوالهم واضافوا إليها محاولين تحديد هذا المنهج الأسلوبى وتوضيح مصادره واتجاهاته [1] ولا يعنينا هنا أن نعرض تفصيلات هذه الدراسة ؛ لأنها ليست مجال البحث ، ولكن الذى يعنينا هنا أن نقف على بعض الظواهر الأسلوبية التى إتسم بها الأبنودى من خلال ديوانه الذي بين أيدينا . والتى من أهمها :

الإطناب :

يعد الإطناب أول هذه الظواهر الأسلوبية التى تبدو فى شعر الأبنودى كما مر بنا ، وقد أفاد هذا الأطناب الشاعر فى كثير، وسمح له بأن يجيد ، وأن يعبر عما يريد ، وفى ابراز الكثير من الظواهر الأسلوبية الأخرى التى أتيحت الفرصة لها فى التكرار ، ومن أبرز صور الإطناب فى شعره :

ظاهرة التكرار: وقد جاء بها الشاعر لإقرار المعنى وتثبيته فى النفوس . وهى ظاهرة بارزة فى شعره بروزاً ظاهراً فى ألفاظه ومعانيه ـ كما مر بنا أثناء حديثنا ـ بل أحيانا يكرر الشاعر الشطر من البيت ، أو البيت كاملاً فى بعض قصائده المختلفة ؛ بل فى القصيدة الواحدة مثل قوله :

ولَـكُـم مِنـَّـا التَّـحَـايـا ولَـكُـم مِنـَّـا التَّـهَـانِـى

وهذا البيت كرره الشاعر ست مرات فى مرثيته للعارف بالله (أحمد رضوان) ، وقد دفعه إلى ذلك أسلوبه الخطابى الذى سيطر على هذا النوع من القصائد .

[1] - عن الأسلوبية : انظر جير وبيير "الأسلوب والأسلوبية "، ترجمة منذر عباس . طبعة مركز الإنماء القومى – بيروت . وهاف كراهيم : "الأسلوب والأسلوبية " نرجمة كاظم سعد الدين ، بغداد آفاق عربية ١٩٨٥م ، د. أحمد الشايب : "الأسلوب" ص٨ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٦ م ، عبد السلام المسدى : "الأسلوب والأسلوبية "- تونس- الدار العربية للكتاب سنة ١٩٨٣م وغيرها .

أيضاً فى قصيدته النبوية نجده يكرر شطر البيت مثل قوله :

فكُنْ مَلاذِى إذا عَزَّ الملاذ غدًا   وجىءَ بى فى قيودِ المذنِبِ الأثِمِ

فيأخذ الشاعر صدر هذا البيت ويجعله عجزًا فى قصيدة دالية أخرى فيقول :

أتيتُ كلا وهَا رحلى بساحتكم   فكُنْ مَلاذِى إذا عَزَّ الملاذُ غدًا

كذلك يكرر الشاعر معانيه ، وأفكاره ، وألفاظه ، ليس فى قصائده المختلفة فحسب . بل يكرر المعنى الواحد عدة مرات فى القصيدة الواحدة ، فنجده مثلاً يكرر فكرة الحقيقة المحمدية ، يكررها فى قصائد المديح النبوى أيضاً ، وفى المولديات التى مدح بها سبط النبى (ﷺ) عبد الرحيم القنائي ، فقد كرر هذه الفكرة فى قصيدته "منحة المنان" فى الأبيات من ٥١:٥٧ ، ثم كررها مرة أخرى فى الأبيات من ٧٤:٧٧ من نفس القصيدة كما مر بنا [١] ، ونجد نفس المعنى يتكرر فى قصيدته "منحة الفتاح العليم " فى الأبيات من ١٦ :٢٠ [٢] ، وأيضاً في قصيدة أخرى "مدح الرسول وسبطه" فى الأبيات ٢٩ :٣٤، [٣] وعلى هذه الشاكلة أخذ الشاعر فى أغلب قصائده يفصح عن حبه للرسول (ﷺ)، وكلفه وشوقه لزيارته، معترفاً بكثرة ذنوبه طامعاً فى شفاعته له يوم القيامة ، وكأن الشاعر في هذا التكرار يشعر بالأرتياح النفسى من خلال الاعتراف بذنوبه ، ومشاركة الأخرين له . فضلاً عن تلذذه بذكر الذات المحمدية (ﷺ) ، وهو رجل فقيه ،عالم ،عامل، يعرف أن تكرار ذكره للذات المحمدية (ﷺ) فيه عبادة وقرب من الله ، وسعادة فى الدنيا والآخرة . ويبدو التكرار اللفظى واضحاً فى مرثيته فى هذه الأبيات :

يا موتُ مالكَ لم تَرْحَمْ بُنُوَّتَنا   فجعلتنا فى كريمٍ سَادَ أقوامَا

يا موتُ مالكَ لم تَرْحَمْ بُنُوَّتَنا   مـلأتَ أنفسنا قرحًا وآلامَا

يا موتُ مالكَ قد عجَّلتَ قدوتنا   فجعلتنا فى الأبِ الفيَّاضِ إلهامَا

يا موتُ مالكَ لم تَرْحَمْ شجاعته   فى الحقِّ كم مستغيثٍ عادَ بسَامَا

ومنها أيضاً :

عَزُّوا المساجدَ فى من كان يَعْمُرها   ليلاً إذا هجعت عينُ الذى نامَا

عزُّوا الهُدَى والتُّقَى عزُّوا السماح فقد   مات الذي كان للأسحار قوَّامَا

عزُّوا المكارمَ عزُّوا الزُّهْدَ فيه فقد   مات الذي كان طول الدَّهر صوَّامَا

عزُّوا المروءةَ عزُّوا كلَّ ذى شرفٍ   مات الذى كان للأضيافِ مطعَامَا

عزُّوا الحياءَ فقد مات الحيىُّ ومَن   قد كان يَلْقَى ذوى الحاجاتِ بَسَّامَا

والغرض من التكرار هنا هو إظهار التفجع ، والألم ، ومرارة الفراق ، والحزن العميق على فقدان المكارم النبيلة التى كان يتصف بها المرثى ، وتقرير هذا المعنى فى ذهن السامع، وتثبيته فى مقام الرثاء .

---

[١] - راجع ديوانه وأشعاره المجموعة ، ص: ٧٢، ٧٤. ط ١ .مكتبة الآداب ، سنة ٢٠٠١م.

[٢] - السابق ص: ٥٩.

[٣] - السابق ص : ١٠٢ وما بعدها

ظاهرة التناص :

التناص مصطلح من المصطلحات المستحدثة التى تم التواضع عليها فى مجال الدرس الأدبى والنقدى ، وخاصة بعد استفاضة الحديث عن البنائية والأسلوبية ، وماقدماه من جديد سواء على مستوى الإبداع أو مستوى التفسير ، وقد أصبح هذا المصطلح أداة كشفية صالحة للتعامل مع النص القديم والجديد على حداً سواء [1] ، وقد عرفت هذه الظاهرة بشكل، أو بآخر فى التاريخ الأدبى لكل أدب تحت مسميات أخرى ؛ كالسرقات ، والاقتباس ، والاستشهاد ، والتضمين ، وربما التقليد ، وكذلك المعارضة [2] .

وظاهرة التناص من الظواهر الأسلوبية الغالبة التى تسيطر على أسلوب الابنودى الشعرى في كل ديوانه . وقد كان هذا التناص بالنصوص القرآنية ، والحديث النبوى ، وألفاظهما ، وبأسماء سور القرآن الكريم ، وأيضاً ـ كان التناص من خلال تشربه للمضمون التاريخى ، والنصوص الشعرية لشعراء سابقين له كما مر بنا . ومن أمثلة التناص بالقرآن الكريم :

كَفَاهُ مَفْخَرةً مدحُ الكريمِ فقدْ   أثنى على ذاتِه فى (ن. والقلم)

فنهاية الشطر الثاني للبيت من قوله تعالى :"{ نَ وَالْقلم وَمَا يَسْطرُونَ} " ومنه أيضاً :

نـاداهُ لا تَخْلعَنْ نَعْليكَ وادْنُ تُصِبْ   مَصُونَ سِرَّ عن الأغْيار مُكْتَتم

تناص من قوله تعالى لسيدنا موسى فى سورة طه : "{ إنى أنا رَبُّكَ فَاخْلعْ نعليْك إنكَ بالْوادِ الْمُقدَّس طوًى}" ،

ومن التناص بأسماء سور القرآن الكريم قوله :

ولستُ مستقصيًا بالمدح غايةَ ما   أوتيهِ مُمْتَدَحٌ فى سُورة "القلم"

- ومن التناص بالحديث الشريف قوله :

يا أكرم الخلق يا من قال "أدبنى   ربىَ فأحسن تأديبى لأنت سَمى"

ومن التناص بالنصوص الشعرية قوله :

قد قال ناعته : مثل المشفع ما   عين رأت ، أترى فى الناس كلهم

تناص من معنى قول حسان بن ثابت (رضى الله عنه) :

---

[1] ـ عن ظاهرة التناص انظر : "د. محمد عبد المطلب : قضايا الحداثة عند عبد القادر الجرجانى "ص١٣٦ ومابعدها . طبعة لونجمان ١٩٩٥م أيضاً محمد فكرى الجزار :لسانيات الأختلاف ... "الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة كتابات نقدية)١٩٩٥م .

[2] ـ محمد فكر الجزار : لسانيات الأختلاف ص٤٥٩.

وأجـمل منك لم تـرَ قط عـيـنى وأكـمل منك لم تـلد النـسـاء
خُلِقْتَ مُـبَـرأً من كـلِّ عَـيْبٍ كـأنـك قـد خُلِقْـتَ كمـا تـشـاء

فقد أخذ الشاعر هذا المعنى ووظفه توظيفاً يخدم النص الشعرى . ويدخل الحديث في أشعاره عن المعجزات ، وخوارق العادات ، وحديث الهجرة فى قصائده تحت التناص من خلال تشربه للمضمون التاريخى . يرجع استخدام الشاعر للتناص لاعتبارات كثيرة منها :

- ثقافته الإسلامية الواسعة التى تعد من مصادر تكوينه الفكرى .
- رغبة الشاعر في إبراز الحجة القاطعة ، والدليل الذى لايحمل الشك على تأكيد القول الذى يريده فكان القرآن ، والسنة النبوية حجته ودليله المؤكدين .

وقد أحسن الشاعر فى توظيف التناص فى شعره توظيفاً جيداً ، وبرع فى استلهام بعض الأحداث من النص القرآنى ، والسيرة العطرة ، والمضمون التاريخى مع إدخال الألفاظ القرآنية فى سياق التعبير ، وتوظيفها جيداً ، وتوزيعها توزيعاً متناسقاً ، وكأنها نسيج واحد.

أسلوب النداء :

استخدم الشاعر أسلوب النداء فى قصائده فى وظائف غير عادية يخرج بها عن أغراض النداء الحقيقية ، ويخاطب فيها ممدوحه "النبى (ﷺ) " ويجيد في استخدام هذا الأسلوب ، ويبدع فى توظيفه ، فهو لاينادىه (ﷺ) ؛ لكي يلبى ندائه ، لكنه يناديه متغنياً بشمائله ، واصفاً له بصفات تليق به على نحو قوله :

يا خَيْرَ من وَطِئَ الغبراءَ مَنْسِمُهُ ....
....
يا خيرَ سار على خَيْرِ المطىَ سرَى ....
....
يا أكرمَ الخلق يا مَنْ قالَ ....
....
يا سَيدَ الأنبيا والرُّسل قاطبة ....
....
يا سَيدَ الكونين ....
....
يا صفوةٌ أبدعتٌ من معدن الكَرَام ....
....

وفى أسلوب نداء آخر ينادى نفسه قائلاً :

يا نفسُ أسرفتِ فى غىَ وقـد وَهَنتْ مِنِّى القـوى وارتَـدَتْ ثـوبًا من الهَـرَمِ

وقد جاء هذا الأسلوب الندائي لغرض بلاغى ، لايعنى الشاعر به التلبية أو الأستجابة ؛ وإنما أراد التوبيخ وإظهار الضعف .

- ومثله أيضاً - أبيات مرثيته التى ينادى فيها الموت قائلاً :

يا موتُ مالك لم ترحم بنوتنا فجعتنا في كريم ساد أقواما
ياموتُ مالك قد عجَّلت قدوتنا فجعتنا في الأب الفيَّاض إلهاما
ياموت مالك لم ترحم شجاعته .... إلى آخر الأبيات

فإن الغرض من هذا النداء البلاغى هو إظهار الحزن ، والتفجع ، والألم ، ومرارة الفراق .

الظاهرة الصوتية :

حافظ الشاعر على موسيقى الشعر فى إبداعه ، وكان التنغيم الصوتى فى شعره ينبع من التزامه بالبحور الشعرية التقليدية ، فقد آثر شعر العمود قالباً لقصيدته ، ونظم القصيدة كلها على بحر واحد ، والتزم بالروى الواحد . وقد تطول قصائده طولاً ظاهراً ، كما رأيناه فى "منحة المنان " ، ولكنك تجدها عامرة بمضمونها . " غنية " بتجاربها . محتفظة بقوتها ، زاهية بصورها الفنية .

وقد آثر الشاعر بحرى البسيط والكامل ، وهذان البحران من الأبحر الطويلة المقاطع الهادئة الموسيقا ، وهما من أكثر البحور انتشاراً فى الشعر العربى القديم [1] .

ويبدو أنه آثر هذين البحرين لملاءمتهما لمعانى فن المديح النبوى الذى يحتاج إلى رقة وجزالة ، وتأمل هادئ لوصف مكارم الرسول (ﷺ) وسيرته العطرة ، والتعبير عن أشجانه ، ولوعة الحب النبوى ، وحرقته فى رزانة وتؤدة .

كما نبع التنغيم الصوتى أيضاً – من استخدامه للتصريح ، وبعض المحسنات البديعية من طباق ، وجناس ، ومقابلة ، وحسن تقسيم ، فضلاً عن استخدامه الموسيقا الداخلية الناجمة عن صدق العاطفة ، وروعة الخيال ، واختيار للألفاظ الموحية ، وانتقائها ووضوحها ، وتركيب الجملة ، وتقسيمها . كل هذا أسهم فى إحداث الإيقاع الصوتى الذى ظهر فى قصيدته ، وشكل ظاهرة صوتية لاتعتمد على الموسيقا الخارجية القائمة على الوزن والقافية فقط ؛ بل مقاطع الكلام ، وتجانس الحروف ، وتوافق المفردات.

وقد التزم الشاعر بوحدة القافية التى أرسلها مطلقة ، ومقيدة . إلا أنه وقع فى بعض الأخطاء المعروفة المتعلقة بالقافية التى تحدث عنها القدماء من فحول الشعراء كالتضمين .

وإن كان النقاد والعروضيون القدامى يعدونه عيباً من عيوب القافية ، فإن نقاد الأدب الحديث يعدونه سمة طيبة فى الشعر ، وأطلقوا عليه ما يسمى "الوحدة العضوية " .

ومن العيوب التي وقع فيها - أيضاً : السناد ، سواء أكان سناد الردف ، أم سناد الحذو ، وكلاهما وقع فيه الشاعر كثيراً ، ويبدو أنه لم ير فى ذلك عيباً ، أو أنه رأى فى القافية الالتزام بالروى الواحد فقط ، وهذا يقلل من الموسيقا فى مقطع البيت .

أما عن الضرورات الشعرية : فقد وقع الشاعر فيما وقع فيه فحول الشعراء القدماء من تجاوزات ، وكان ينبغى أن يتجنبها وإن وردت فيه رخصة من أهل العربية ، كما رأى أبو هلال العسكرى لأنها قبيحة تشين الكلام وتذهب بمائه [2] ولكن أكثرها جاءت من الشائعة التى لا تستوحشها النفس كقصر الممدود ، وصرف الممنوع من الصرف ، أو الإشباع إذا أحتاج الوزن إليه .

---

[1] - راجع : ابراهيم أنيس : موسيقا الشعر ص١٩١ ومابعدها .

[2] - أبو هلال العسكري : الصناعتين ص١١٢ .

الصـــــــــــــورة :

من السمات البارزة في شعر الأبنودى الصدق في التعبير ، وروعة الخيال ، وانسياب المعاني أنسياباً لايكدر صفوها محسنات بلاغية . فقد أوتي ملكة خاصة في تشخيص الصورة، والأحاطة بالمعنى ، وجودة التشبيهات ، وإن كان أكثر هذه الصور تقليدية "موروثة " أقتبسها كغيره من الشعراء ، ولكنه أضفى عليها من ابتكاره وخياله مايزينها بما يلائم أسلوبه في المعاني واستخدامه الجيد للألوان البديعية ، فقد عمد فيها إلى التفضيل، والإحكام ، أو التوليد ، والأضافة . وقد اهتم الأبنودى بالصورة الاستعارية أكثر من الصورة التشبيهية ، واعتمد على مقدرتها على التخيل ، والتجسيم والتشخيص ، واتخذها وسيلة من وسائل التعبير المجسد للمعنى ،والتاثير في المتلقى . ولم يغرب في صوره وإن كان أكثرها من النوع القريب المباشر الذى لايحتاج إلى قدرة عالية من الذكاء ، وهذا يتمشى مع مقام مديحه النبوى ، وحالة المستمعين الذين يمثلون السواد الأعظم من الناس ، وإلى جانب اهتمامه بالصورة الأستعارية والتشبيهية نراه يميل إلى استخدام البديع في شعره ، وكان الجناس ، والطباق ، وحسن التقسيم أكثر الألوان البديعية استخداماً ، ولكن دون أسراف ، أو تكلف ،أو فساد في المعنى كما مر بنا .

اللغة والتراكيب :

عُنى محمود الأبنودى بانتقاء ألفاظه عناية فائقة ، وحرص فيها على عراقة النسب اشتقاقاً واستعمالاً ، وصاغ عباراته صوغاً سليماً ،لايستخف فيه بقواعد اللغة ، ولا بأصول البيان العربى ، فسلمت ألفاظه ، وخلت عباراته إلى حد كبير من العيوب التى تخرجها من حد الفصاحة والبلاغة ، وتظل لغته واضحة لفظاً وتركيباً ، فلا غموض في أستعمال الألفاظ والعبارات التى تحمل معانيه ، ولكنه وقع في بعض الأخطاء اللغوية التى دفعته إليها دفعاً المحافظة على قافية البيت وذلك في قوله :

وشَـام مـن كبريَــاتِ الآى ما قصُرتْ　　　مَراتِبُ الرُّسـل عَنْـهَا وهُوَ خَـيْرُ قَــمى

فكلمة (قمى) التي وردت في البيت أصلها (قمئ) مخففة الهمزة ، ومعناها (حقير) والشاعر هنا لايقصد هذا المعنى في مقام مدح الذات المحمدية (ﷺ) ، كما أن هذه الكلمة ليست من الأضداد ، واللفظة المرادة هنا (قمين) أى خليق وجدير وهو المقصود في البيت ، ولكنه أراد أن يحافظ على الوزن والقافية فحذف آخر الكلمة وهو حرف النون فوقع في هذا الخطأ اللغوى ، وقد كرر نفس الخطأ اللغوى في نفس المدحة في بيت آخر فقال :

يـا أكْـرمَ الخلق يـا من قـــال : أدبَنى　　　ربّـى فــأحســـن تأديبـي لأنتَ قـــمى

يأخذ عليه - أيضا- تنافر الكلمات مجتمعة في قوله :

وفى الحَشَـــا لوعـــةٌ لا لا أبوحُ بها فـــمـــا علـــى الحِبِّ يَخـفـى منشأ الالـــم

فتكرار كلمة "لا" هنا فضلاً عن كثرة تكرار حرف الـ " لام" فى البيت أدى إلى ثقل فى النطق ، وهذا عيب من عيوب الفصاحة ، ولو أن الشاعر قال " وفى الحشا لوعة لا لن أبوح بها " لقلل مخارج الحروف من المخرج الواحد ، وخفف هذا الثقل .

ويؤخذ عليه - أيضاً - كلمة " غصَّ" فى قوله :

تِلكَ الدّيارُ وما تَحْويه من مُـــتَعٍ وإنْ تراءتْ كـــــروض غصَّ بالنــّعَـــم

فهي كلمة غير دقيقة المعنى فى موضوعها فى البيت ، فالحديث هنا مفترض أن يكون مقام ترغيب فى هذه النعم والمتع التى حوتها الدنيا كما تتراءى لنا وفق نظرة الناس إلى الدنيا فى صورة زاهية ، وإن هذه الكلمة فيها إشباع مادى بالتنفير والتكدير والتنكيد ، وكان

من الأفضل أن يستبدلها بكلمة أخرى مثل " فاض بالنعيم " أو فاح أو كظ بالنعيم .

وبعد .. ، فإن ثقافة الشاعر الواسعة ، وذوقه الفنى المرهف كان لهما دور كبير فى قدرته على الإجادة فى التعبير ، واتقان التصوير ، وصفاء ديباجته الشعرية ، وإن مثل هذه الأخطاء التى وقع فيها الشاعر لا تقلل من مقدرته الشعرية .

وهنا نستأنس بقول أبى فرج الأصفهانى فى معرض حديثه عن أخبار أبى تمام : " وليست إساءة من أساء فى القليل وأحسن فى الكثير مسقطة إحسانه ، ولو كثرت إساءته ، ثم أحسن ، لم يقل له عند الأحسان أسأت ، ولا عند الصواب أخطأت ، والتوسط فى كل شئ أجمل ، والحق أحق أن يتبع . . . " [1] .

[1] - راجع : الأغاني لأبى الفرج الأصفهانى ، جـ ١٧،ص١٢٢٨ .

أهم المصادر والمراجع:

- إبراهيم أنيس (دكتور): موسيقا الشعر ، ط٥ ، مكتبة الأنجلو بالقاهرة ، سنة ١٩٧٨م .
- أحمد أحمد بدوي (دكتور): الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٢م .
- أحمد الشايب (دكتور): الأسلوب ، ط ٢، مكتبة النهضة بمصر ، سنة ١٩٨٦م.
- أحمد عبد المجيد محمد خليفة (دكتور) : ديوان محمود الأبنودي جمع ودراسة ، ط ١، مكتبة الآداب بالقاهرة ، سنة ٢٠٠٠ م.
- أحمد محمد رضوان : النفحات الربانية من أحاديث وأقوال وتوجيهات مولانا العارف بالله الحاج أحمد رضوان ، مطبعة وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ،سنة ١٩٨١م .
- الإدفوي (كمال الدين أبو الفضل الإدفوي) : الطالع السعيد ، تحقيق سعد محمد حسن ، القاهرة ، سنة١٩٦٦م .
- البوصيري (شرف الدين أبي عبد الله بن سعيد) : ديوانه ، تحقيق أحمد حسن يسج، ط١، دار الكتب العلمية بيروت ، سنة ١٩٩٥م .
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): الحيوان ، ج٤ ، تحقيق عبد السلام هارون ،القاهرة ، سنة ١٩٧٥م.
- السيوطي (جلال الدين السيوطي) : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط عيسى البابي ، سنة ١٩٦٧م .
- شوقي ضيف (دكتور) : العصر العباسي ، ج١ ، ج٢ ، طبعة دار المعارف المصرية ، ط٢ .
- صفى الدين الحلى : ديوانه .طبعة النجف ، تحقيق أبو الفضل عبد العزيز بن سرايا ، سنة ١٩٥٦
- الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى) : الأوراق ، مطبعة الصاوي بالقاهرة ، (ب. ت.) .
- الطاهر أحمد مكي(دكتور) : الأدب المقارن ـ أصوله وتطوره ومناهجه ، دار المعارف ، ١٩٨١م .
- عبد الحميد السيد(دكتور) : سيدي عبد الرحيم القناني ، دار التأليف والطباعة والنشر ، ١٩٨٧م.
- عبد السلام المسدي(دكتور) : الأسلوب و الأسلوبية ، طبعة الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٨٣م.
- العسكري (أبو هلال العسكري): الصناعتين ، ط١، محمود بك ، الأستانة العليا ، ١٩٧٠م .
- أبو فرج الأصبهاني : الأغاني ، ج١٧ ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الشعب ، ١٩٧٠م.
- قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق دتور محمد عبد المنعم ، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية ، سنة ١٩٧٨م.

- الكتبي (ابن شاكر الكتبي) : "فوات الوفيات " ج٣ ط دار صادر ، سنة ١٩٧٤ ، تحقيق إحسان عباس ،
- كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني : ديوانه، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .
- محمد عبد المطلب (دكتور): قضايا الحداثة عند عبد القادر الجرجانى " ،طبعة لونجمان ١٩٩٥ م .
- محمد عطية الإبراشي : عظمة الرسول ، ط٣، البابي الحلبي وشركاه .
- محمد فكرى الجزار :لسانيات الأختلاف " الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة كتابات نقدية)١٩٩٥م .
- محمود الأبنودي : منحة المنان في مدح سيد الأكوان ، ط٢، طبعة العهد الجديد بالقاهلرة ، ١٩٦٥م.
- محمود مكي (دكتور) : المدائح النبوية ، ط١ ، لونجمان ، سنة ١٩٩١م .
- محمود مهدي (دكتور) نائب رئيس تحرير جريدة الأهرام " منحة الفتاح العليم" والتي قام بطبعها على نفقته الخاصة في ٢٨ فبراير ١٩٧٣م .

المراجع الأجنبية :

- جيروبيير : الأسلوب والأسلوبية ، ترجمة منذر عباس ، طبعة مركز الإنماء القومي ، بيروت .
- هاف كراهيم :الأسلوب والأسلوبية ، ترجمة كاظم سعد الدين ، بغداد ، آفاق عربية ، ١٩٨٥م.